سيراي ساهينار

أنتابيوز

ترجمة: مدحت طه

أنتابيوز

رواية

سيراي ساهينار
ترجمة مدحت طه

الجزء الأول

امرأة تقفز إلى حتفها مع ابنتها

ليلا تي. آر. امرأة في الخامسة والعشرين من عمرها، تعيش في إسطنبول في حي الإيمان، قفزت من شرفة شقتها مع ابنتها بعد أن أصيبت بانهيار عصبي. أكد التشريح أنها كانت حاملًا في شهرها الثالث. أفاد جيرانها بأنها هي وزوجها -رمزي تي- اعتادا الشجار. بدأ التحقيق مع زوجها.

جلست أولكر على طاولة في حديقة المستشفى تقرأ الجريدة. تفحصت صورة ليلا بعناية، لأنها بدت مألوفة لها. مرت بها ممرضة، ولاحظت القصة التي تقرأها وقالت:

رأيت الحادثة أنت كذلك؟ لقد أوجعت قلبي. يا له من عار.

أجابت أولكر: *أقسم إنني رأيت هذه المرأة في مكان ما من قبل*.

قالت الممرضة: *ألا تذكرينها؟ لقد قمت بزيارتها في حجرتها ذات ليلة*.

قسم الباطنية - حجرة 424 – قبلها بيومين.

أطلت أولكر من الباب، الذي كان مواربًا. كانت امرأة شابة عانى وجهها من ضربات وكدمات، راقدة في سرير المستشفى وقد علق في ذراعيها ممر وريدي بالمحاليل. لم يكن هناك أحد جالسًا على مقعد الزوار.

دخلت أولكر الحجرة وقالت: *كوني بخير سريعًا يا حلوتي*.

نظرت إليها المرأة بحيرة. جلست أولكر.. *اسمي أولكر. ما اسمك؟*.

ليلا.

سحبت أولكر كرة من الغزل وزوجًا من إبر الخياطة من كيس بلاستيك للأدوية. سألت ليلا وهي متوترة بعض الشيء: *هل أعرفك؟*.

دون أن ترفع نظرها عن خياطتها قالت أولكر: *قلت لك إن اسمي أولكر. رأيت أنك بلا أي زوار واعتقدت أنه أمر طيب أن آتي إليك. ليس جيدًا أن تظلي وحدك عندما تكونين في مستشفى*.

رفعت أولكر القطعة التي كانت تخيطها: *سويتر لرضيع. أرى الزوار الآخرين يخيطون ليمرروا الوقت أيضًا، لكنهم يفوتون بعض العقد. ليست تلك الطريقة التي يجب أن يعملوا بها. السر أن عليك الحفاظ على مواقع الغرز بشكل صحيح. الملابس التي أخيطها لا تبلى أبدًا. ارتديها لعشر سنوات، واغسليها كل يوم، وستظل جيدة مثل الجديدة*.

نظرت نظرة خاطفة على التلفزيون، الذي كان على طاولة عند نهاية سرير ليلا: *أقول لك، هذه الحجرات الفردية أفضل من غرفة في فندق خمس نجوم. حبيبتي، أنت لا تستقبلين أي زوار، هل تفعلين؟ اعتبريني زائرة لك. سأكون أفضل صديقة لك على الإطلاق. ارفعي صوت التلفزيون قليلًا يا حلوتي*.

انفتح الباب ودخلت ممرضة. حدقت في أولكر وقالت: *أنت ثانية؟ كم مرة قلت لك، لا يمكنك الاستمرار في فعل ذلك؟*.

انظري للفتاة البائسة، هي وحدها تمامًا. سأكون صديقتها، ما الخطأ الكبير في ذلك؟.

انسي الأمر. سيكتب لها خروج خلال يومين على أي حال.

وليكن، ثم ماذا؟ يومان هما يومان.

كبير الأطباء يقوم بجولته، من الأفضل لك أن تذهبي لعنبر آخر.

على الأقل دعيني أنهي هذا الصف من الخياطة حتى لا ينحل.
أكملت أولكر خياطتها بهدوء. نظرت ليلا للممرضة متسائلة، وأومأت تجاه أولكر. لوحت الممرضة بيديها كما لو أنها تقول: *فقط تجاهليها*.
قالت أولكر، بينما تجمع ما غزلته في حقيبتها البلاستيكية: *كوني بخير، حبيبة قلبي. إذا ما عدت لهنا في أي وقت، أخبريهم أن يستدعوني لرؤيتك. فقط اسألي الممرضات أين أولكر، وسيأتون ويجدونني*.

***

نظرت أولكر إلى الخبر المنشور مرة أخرى: *انظري إلى ذلك، يقول الخبر إنها عانت من انهيار عصبي. لكن كيف لشخص أن يقتل نفسه مع ابنته..*.
قالت الممرضة: *سمعت أن زوجها كان يضربها، وقد أتت إلينا ووجهها مليء بالكدمات. اعتقد أنها كانت على علاقة غرامية مع شخص آخر، رجل يُدعى مظلوم. ظلت تقول اسمه أثناء نومها. قبل أن أنهي ورديتي يوم الجمعة سألتها: *من هو مظلوم؟* لكنها لم تقل شيئًا. إنه لعار حقيقي*.
قلبت أولكر الصفحة وغمغمت: *حسنًا، أخمن أنها لم تجد سبيلًا آخر للنجاة*.
لا تقلبي الصفحة. قصص الأخبار الشعبية في ظهر الجريدة يمكنها فقط أن تكون مجرد سطور قليلة، لكنها تحكي عن الموت واليأس.
لا تقلبي الصفحة، ليس بعد. دعينا نعود يومين للوراء قبل أن تصل القصة إلى الصحافة. أنا، ليلا تاسي، كنت راقدة بالمستشفى، وليس المشرحة.
أخيرًا غادرت الممرضة. هي لطيفة، لكنها تسأل الكثير من الأسئلة. هي تفعل بطبيعة الحال. لو كان لي زوج يتركني أصبغ شعري، وأضع أحمر الشفاه وتكون لي وظيفة، كنت لأسأل كل أنواع الأسئلة أنا أيضًا. بالإضافة إلى أنها جميلة. هرولت خارجة من الحجرة قائلة: *أراك يوم الإثنين*. لديها خاتم يلمع في إصبعها. ربما كانت متزوجة حديثًا. المتزوجات حديثًا دائمًا ما يبدون كذلك، يسرعن إلى بيوتهن لأزواجهن كما لو كان العشاء يحترق في الفرن. أعطوهن فقط سنوات قليلة، وسيبدأن في الشكوى. إذا كانت في عجلة من أمرها للعودة إلى البيت، لا بد أنها تحب زوجها. وهو أمر جيد لعائلتها. فهم يمنحونها تعليمًا بحيث يمكنها أن تصبح ممرضة، ثم يدعونها تتزوج *الرجل الذي تحبه*. من المحتمل أنهم قالوا للرجل: *الآن، انظر، من الأفضل لك أن تعتني بها لأن أباها سيستشيط غضبه إذا لم تفعل. نحن لن نسمح لك أن تسيء معاملتها*. هكذا يجب أن تكون العائلات.
زوج الممرضة مدرس بالمدرسة الابتدائية. أراهن أنه يحب الأطفال حقًّا. سيرزقون بأطفال خلال عام أو عامين، وسيكون عليها أن تعتني بهم بين الورديات في العمل، لأنها لن تتخلى عن وظيفتها. سيأخذون قرضًا لشراء منزل لهم عندما يولد طفلهم الأول. وستعتني الجدة به. الزوجة امراة عملية تعرف إدارة العلاقات لأنها تعمل منذ أعوام.
في الجوار، حيث تعيش، سيسمونها *الممرضة النارية*. مثلًا، افترض أن ضيفًا دق فجأة على بابهم. ستقوم بإذابة الثلج عن دجاجة وتقطع بعض حبات البطاطس لشرائح، وترمي بكل شيء في الفرن مع بعض حساء الطماطم. ثم ستقوم بتسوية بعض الأرز مع الشعرية، وتعد طبق سلاطة... فممرضتنا النارية دائمًا ما تملك دجاجة في الثلاجة لأوقات مثل تلك. يقولون في التلفزيون:
اللحم الأبيض صحي أكثر من اللحم الأحمر

إذا سألتني، يقولون ذلك لأن الدجاج أرخص. على أي حال أنا لا آكل اللحم الأحمر، حتى رائحته تصيبني بالغثيان. الممرضات دائمًا ما يكن كذلك، على أهبة الاستعداد. يحتفظن برقائق من العجين في الثلاجة، فإذا ما فاجأهن ضيف يوم الأحد، يمكنهن أن يخبزن بعض الحلوى. تلك الممرضة لديها عقل جيد فوق كتفيها.
لكن، كل هذه الأسئلة التي تسألها. من هو مظلوم؟ يبدو أنني واصلت ذكره عندما كنت نائمة.
مظلوم، مظلوم، مظلوم. لم تسأل زوجي عن أي شيء، ربما لأنها تعتقد أنني لدي ما أخفيه.
ممرضتنا النارية كثيرة التفكير. أعطيتها رقم هاتفي، ستتصل لتسأل كيف تسير الأمور معي، وإذا ما جاء زوجي فجأة وأنا أهلوس باسم مظلوم، ستقنعه أن مظلوم هو مجرد بواب أو شيء ما من هذا القبيل. وإذا ما سألتني، وفي رأسها قناعة بأن مظلوم رجل شاب سيقوم بزيارتي في المستشفى. حسنًا، ماذا عن هذا؟ يمكننا أن نمنحه بالطو أبيض ليلعب دور طبيب. أيتها الممرضة، يا لك من سيدة طيبة، يمكنك أن تحظي بمدرسك، أنا أريد البواب خاصتي..!
عندما رأتني الممرضة وجسدي كله ملطخ باللون الأسود والأزرق، ربما شعرت بالأسى نحوي. ربما أملت أن أنجو من زوجي، وأتمكن من الهرب مع الرجل الذي أحبه، فقد عقدت عزمها: مظلوم هو محبوبي. هي لن تتفوه بكلمة إذا ما هربت إليه، رغم أنني متزوجة بالفعل. ما العجيب في الأمر إذا لم أكن عذراء؟ نحن نحب بعضنا الآخر، هذا ما يهم، صحيح؟ الأفلام على شاشة التلفزيون ليست مثقفة كثيرًا، لكن مظلوم مثقف! ماذا يقولون في الأفلام؟
التلفزيون
لدي عيون فقط لأجلك!
ذلك ما يقولونه. ثم بعدها: *مؤكد أنك تملك عينين فقط لأجلي، لكن هل كنت امرأتك الأولى؟* على أي حال، مظلوم فقط هو كذلك، الرجل المفترض أنني أحبه، هو سيمنحني حياة مليئة بالسعادة، وسيساعدني كي أنسى كل الأيام السوداء. لكن دعيني أسألك: منذ متى ساعد رجل امرأة على الخروج من عذاب حياتها دون أن يحظى بها بداية بين الملاءات؟ تلك الممرضة ساذجة للغاية، لا أدري أبدًا كيف اجتازت دراستها الإعدادية. ظهرت يوم الإثنين في حجرتي مرة أخرى، متسائلة: *من هو مظلوم؟ هيا يمكنك أن تخبريني، من مظلوم هذا؟* من المحتمل أنها ترى فيّ شيئًا ما لأنني المريضة الوحيدة التي لم تتجاوز التسعين. كما أنني لا أشكل لها أي مشكلة، ولذا من السهل لها أن تعتني بي. أعني أنه لن يكون عليها أن تطعمني أو أن تنظف نونية سريري. يوم الجمعة، تغني بعض الأغاني: *كل العمل تم، عليّ العودة إلى البيت لحبيبي!*.
كان هناك هذا الرجل الذي يُدعى *فيلي* في قريتنا. أسموه *فيلي كيس الرياح* لأنه كان يهذي طول الوقت. الآن أنا مثله تمامًا. لكن امنحيني بعض الراحة، أنا هنا وحدي مع نفسي تمامًا. إذا لم أتحدث عن هذا الآن، فمتى سأفعل؟ أنا عادة لست كثيرة الكلام عن الناس، لذا لا تشغل بالك بي، أنا مجرد ثرثارة منطوية على نفسها. هناك هذا المرض الذي سمعت عنه، كانوا يتحدثون عنه على شاشة التلفزيون، برنامج صحي أو ما شابه. عندما يصاب به الناس فإنهم يتجشؤون أي شيء يأكلونه:
التلفزيون
ارتجاع الحامض، ابتلاء رهيب
ما أعاني أنا منه هو ارتجاع فموي. كنت أعض على لساني طويلًا حتى إن كل شيء أبلعه يريد أن

يرتجع. لذا، ماذا لو تكلمت؟ لم ليس عليّ أن أفعل؟ أبقِ فمكَ مغلقًا إذا أردت تجنب المشاكل. حاولي الكلام مع زوجك وسيجلدك بلسانه، أو الأسوأ! ولا أستطيع قول أي شيء لجيراني عما يجري معي، وحتى لو فعلت، ما الهدف؟ هم يسمعون كل شجار يحدث بيننا على أي حال، الصراخ وتحطيم الأثاث. لم يأت أحد من الجيران ليدق على بابنا ذات ليلة ويقول لزوجي: *سيدي، هذا شيء غير جدير بالاحترام ما يجري هنا، هذا بلد متحضر، كما تعلم*.
سيدي! هم ينادونه بـ*سيدي!* يا لها من مزحة. هو يعلم أي قطعة من خراء يكون. مثل هذا الرجل، زوجي ذلك. بالتأكيد، هذا بلد متحضر. ذلك ما يقولونه على شاشة التلفزيون طوال الوقت... إذا ما تعلمت أي شيء في الحياة، فإنه كان من التلفزيون. أنا أحب البرامج الحوارية *برامج الثرثرة*، لكن كل الضيوف فيها من تلك العينة من خريجي الجامعات دائمًا. عائلتي لم تدعني أذهب للمدرسة، لذا حصلت على درجتي العلمية من التلفزيون. دعني أقول لك، دون تلفزيون، لن يدوم زواج لأكثر من عام.
على سبيل المثال، خذ النساء من جيراني. مؤكد هن متزوجات، لكنهن جميعًا لديهن عشيق سريّ: التلفزيون. على الأقل وهو مفتوح، فالبيت ليس هادئًا تمامًا. فعندما يحل الليل ويعود أزواجهن إلى البيت، ويتساقطون أمام التلفزيون وينسون أي شيء آخر -بما فيه زوجاتهم- تتطير أولاء النساء إلى نوبة رعب من حقيقة أن عشاقهن هم الآن بين براثن أحد آخر.. على الشاشة. لكن هل هن غيورات من التلفزيون أم على أزواجهن؟
أنا لا أعرف. بالنسبة لي.. حتى من دون تلفزيون، فالطلاق أمر غير محتمل خلال عام، ولا ألف عام. إذا ما كنت لأقول لأبي: *أبي، هذا بلد متحضر، لكن زوجي هذا يضربني بعنف* ما الفارق الذي سيحدث؟ كما لو كان لم يعلم ما كان يخبئه لي القدر عندما زوَّجني. إذا كان أبوكِ رجلًا حقيقيًّا، بالتأكيد عليكِ الذهاب إليه وإخباره بما يجري، لكن ليس كل امرئ لديه أب مثل أبي تلك الممرضة الذي كان يجلس مع زوج ابنته ويقول له: *راعِ كيف تعامل ابنتي أو سيكون عليك التعامل معي!*.
يتعلم الناس أن يعيشوا كما لو كانوا جميعًا وحيدين. الأمر يحتاج للوقت فقط. الناس يتجاهلونني، لذلك أفعل الشيء ذاته معهم. مؤكد أنني أشكو للممرضة من هذا وذاك، لكن هذا هو الأمر: هي الشخص الأول على مدى سنوات الذي سألني عما أشعر به. كل هذا عظيم، لكن كيف أخبرها عن مظلوم؟ كما لو أنها ستتفهم الأمر. ها! لسوف تهز رأسها وتقول: *أنت مجنونة*. ثم ستغادر. لذلك ماذا لو كنت أتكلم أثناء نومي؟ ما الذي تسعى السيدة الممرضة لتعرفه؟
أنت أيضًا من المحتمل أنكِ تتساءلين عم تدور القصة كلها. أراهن الآن أنك تسألين: *من هو مظلوم؟* هي، هل قلت شيئًا ما؟ أنا أعرف أنك هناك! هناك دائمًا أناس يراقبون؛ عندما يصفع رجل ما حبيبته في الشارع، عندما يصرخ زوج في وجه زوجته ليلة زفافهم، وحتى عندما يتم ضربك في البيت... قبل أن يبدأ ضربي، لدى زوجي اللياقة ليغلق الستائر بحيث لا يحرجنا أمام جيراننا. لكني كنت أعرف أنهم يسمعون كل ما يجري. أنتِ تسمعين، وترين، وتستائين... ففي نهاية المطاف لديك قلب. ربما عندما تخلدين للنوم في الليل مع زوجك تقولين: *أشعر شعورًا رهيبًا، ذلك الرجل يضرب زوجته ليلًا ضربًا مبرحًا*. وبينما يتم ضربي حتى أصاب بكدمات سوداء وزرقاء، تنتابك قليل من مشاعر التعاطف لتخففي من ذلك الشعور الرهيب في قلبك. مؤكد أن عائلتك تعرف أنكِ شخص ممتلئ بالإنسانية، ولكنك تنجرفين في النوم. وعندما تستيقظين في

الصباح التالي، لديك حياتك لتعيشينها، مشاكلك الخاصة تضايقك باستمرار، لذا لماذا تفكرين في أمري؟ دعي الشيطان يتولى الأمر. عليّ أن أجد خلاصي الذاتي بعيدًا عن هذا. لِمَ تحدث لي مثل هذه الأشياء ولكن ليس لكِ؟ يمكنني أن أسمعها الآن: *إنه ليس مجرد حظ، عليكِ أن تستخدمي عقلك!*.

دعنا نقول إنني أريد الذهاب للبوليس لأن زوجي يضربني، لكنكِ، كجارة لي، لن تحضري كشاهدة. لماذا؟ في النهاية هو شأن عائلي. غدًا أو في اليوم الذي يليه ستعود الأمور لمجراها بينكم بشكل صحيح؟ *ما هو شأنك؟ إنه زوجي. ربما إنه يضربني، لكنه يحبني*. سوف تشعرين بالسوء، ألن تفعلي؟ حسنًا، اللعنة. ليس لديك الحق في دس أنفك في شؤوني. أكيد، أنت تشعرين بالسوء، لكنكِ لن تتحازي لأي طرف. أنتِ واهنة العزم للغاية، وإن كنت جارة طيبة النوايا. عندما أعاني، أنتِ تبقين ساكنة تمامًا وتتخذين جانب زوجي. أنتِ دائمًا تفعلين. حتى عندما كان أبي ذاته في أفضل حالاته، اتخذ جانب أبنائه ضدي.

.....

هل من المناسب أن أناديك *أبي*؟

.....

الناس دائمًا ما يرون ما يجري، ويعرفون ما الذي يحدث؟ اعتدت الشعور بالإحراج، وأقول: *من فضلك ليس أمام كل أولئك الناس!* لكن هؤلاء الآخرون هم مصدر احتقار، أولئك الصامتون يرون ولا يرون. طالما تتجاهلني فإنني أرد لك الجميل.

.....

اسم الرجل الذي أحببته لم يكن مظلوم، كان اسمه عُمر، اللعنة عليه ذلك الوغد، كنا لا نزال صغارًا... وكان خائفًا، ذلك الطفل البائس. هل كانت تلك بالفعل الطريقة التي رأيت بها عُمر؟ كطفل مذعور؟ في تفكيره كنت لأذوب مثل الزبدة المنزلقة في طاسة ساخنة، بمجرد قبلة. كانت هناك حتى أغنية تحمل اسمه في التراث. في المنزل في حجرتي كنت أمسك بفرشاتي مثل ميكروفون وأغني أمام المرآة. كنت في الخامسة عشرة وقتها.

اسم حبيبي عُمر، هو دائمًا حلو المعشر
عندما يراني، يتحول للون الأحمر مثل البنجر
اركب دراجتك يا عُمر، تجول حول منزلنا
إذا رآك أبواي، لا ضرورة لتخفي وجهك
تعال راكبًا يا عُمر، اخرج لتراني.

ذات يوم بينما كنت أغني تلك الأغنية أمام المرآة، سرحت تمامًا حتى إنني لم أدرك أنني كنت أرقص. أعني، عندما دخل والدي وصفعني بعنف على وجهي. *لماذا ترقصين كما عاهرة ما؟ تريدينني أن أدخل السجن بسبب قتلك؟ أهذا ما تريدينه؟ أنت تتصرفين كمومس منذ أتينا إلى إسطنبول*.

بالعودة إلى قريتنا، كنت مشحونة بالأحلام عن المدينة. كانت في كل برامج التلفزيون: *إسطنبول، آه إسطنبول!* تصلين إلى إسطنبول في قطار حيدر باشا، ويمتد البحر من أمامك. عندما انتقلنا إلى المدينة، ظننا أنها ستكون تمامًا مثلما تبدو على التلفزيون، لكننا وصلنا إلى محطة أتوبيس إيينلر، حيث لا قطارات ولا بحر. والتقطنا عمي في سيارة توصيل طلبات. جلس أبي في الأمام مع عمي

والسائق، بينما تكومنا أنا، وأمي، وإخوتي في الخلف، حيث شاهدنا إسطنبول، مقرنا الجديد، وقد بدت مسرعة من خلفنا. أخي الأكبر حسين وأنا توقعنا أن نصل إلى حي حيدر باشا. لكن لا، سارت السيارة طويلًا حتى نقطة اعتقدت فيها أن أبي قرر العودة مرة أخرى لقريتنا. قدنا بالسيارة عبر بلوكات مساكن تلو البلوكات، وحشود من الناس، وبعدها كانت هناك حقول كبيرة مفتوحة على المدى.

توقفت سيارة النقل في نهاية المطاف في منطقة جوار منزلق. كانت المنازل في قريتنا مثل القصور مقارنة بتلك المنازل هنا. نظرنا -حسين وأخي الأكبر منه وأنا- بعضنا إلى بعض في حيرة: *إذًا هذه هي المدينة العظيمة إسطنبول؟* كانت الطرق موحلة، والمنازل متداعية، ورأيت أعلى الطريق بعض الخرفان مربوطة أمام كوخ.

عندما نظرت خارج نافذة منزلنا الجديد، جلّ ما رأيته كان مواقع للبناء. لم أستطع رؤية الكثير غير ذلك. ولأنني كنت فتاة، لم يكونوا ليسمحوا لي حتى بالذهاب إلى متجر في الجوار. حصل إخوتي على عمل في مصنع ملابس. كان عملًا بسيطًا، لكن مرهقًا. ما الذي أمكنهم أن يفعلوا غير ذلك؟ في قريتنا، كل ما عرفناه هو العمل في الحقول. ظللت أفكر أننا طالما انتقلنا كل هذه المسافة، علينا على الأقل أن نخرج لنرى المدينة. لكن لا! كل ليرة نكسبها يجب ادخارها؛ لماذا؟ حتى يمكننا أن نوفر مالًا يكفي لشراء منزل بالطبع.

انتقل عمي للمدينة قبلنا بعدة أعوام، كان رجلًا عديم الرحمة، من نوع الرجال الذين ينظرون للحمير النافقة حيث يمكنهم التنقيب عن الحدوات في حوافرهم! وكان يجدها فعلًا، وكان يتصرف وكأنه يمنح أبي النصيحة، وكان يتخذ القرارات لعائلتنا. ذات ليلة بينما كنا نحاول استبيان كم من الوقت نحتاج لنوفر الثمن لشراء منزل، جاء إلينا، قال: *دع ليلا تعمل في مصنع ملابس*. القليل من الليرات هي قليل من الليرات. *كما هي الحال، هي فقط تجلس حول المنزل*. اعتقدت أن أبي لن يقبل هذا أبدًا، حتى لو تحدى التهديد بالموت. جلس هناك يفكر، ويقضم في شاربه. في النهاية، أومأ برأسه موافقًا.

ذلك كان الرجل الذي لم يسمح لي بالذهاب إلى المتجر خوفًا من أصبح مومسًا! فعليًّا كنت سعيدة بالأمر. على الأقل سأكون قادرة على الخروج ورؤية بعض الناس، ولو لمرة. وجد عمي مكانًا لي ليستأجرني وأخذني إلى هناك. لم يكن مكانًا كبيرًا جدًّا، أكبر قليلًا من ورشة. كان هناك نحو خمس عشرة ماكينة للخياطة وطاولة طويلة، اكتشفت أنها تُسمى طاولة القص. تحدث عمي للمالك عن راتبي، ووافق على إرساله لأبي كل شهر. نظرت بدوري إلى صفوف الفتيات العاملات يخطن على الماكينات، وأصابعهن تعمل بلا توقف.

ورغم أننا آتون من الريف، لكنها ليست المرة الأولى التي أرى فيها ماكينة خياطة. كان هناك هاتيس، التي امتلكت ماكينة. عندما كنا نعمل في الحقول، كنت لأقول لأبي إنني سأذهب لأساعدها وتعلمت عندها الخياطة. هتفت: *آه، إنه حلم كل فتاة، ماكينة خياطة ماركة زيتينا!* كنا نضحك على ذلك.

توقعت في الطريق إلى الورشة أنهم سيضعونني على ماكينة خياطة حيث إنني أعرف بالفعل كيف أخيط، لكن هذا لم يحدث. الماكينات في إسطنبول مختلفة عن الماكينات التي لدينا؛ إنها تهدر مثل المناشير في قريتنا. كان رجلان شابان يعملان عند طاولة القص، يفكون أثواب القماش، ويمشون من طرف الطاولة إلى الطرف الآخر، يفككون النسيج، ثم يعودون ثانية، للخلف وللأمام. يسمون

تلك العملية *فرد النسيج*، عندما تصبح لديهم طبقات كافية منه، ثم يحددون النساق والطرز على القماش، وعندها يؤخذ إلى ماكينة القص. وقبل أن يغادر عمي أتى إليّ وقال: *سيصحبكِ أخوك الليلة في طريق عودتك*. سار رئيس العمال باتجاه رجل طويل من العاملين عند طاولة القص، وقال له شيئًا ما وهو يشير إليّ. كنت جالسة بجوار الحائط مثل عروس خجول مما ستكون عليه، منتظرة التعليمات من مرشدها.
سار الرجل الشاب الطويل معي وأجلسني على ماكينة، وقال تلك آلة تصفيف الحواف. ثم أضاف بابتسامة: *أوه، ومرحبًا بك في الورشة*. عُمر... كان أول شيء لطيف رأيته منذ وصولي إسطنبول. حسنًا، لكن على أي حال، لم أرَ الكثير غير ذلك.
في الصباح كنت أستيقظ قبل أي أحد بنصف ساعة. بداية كنت أمشط شعري على جانب ثم على الجانب الآخر لفرده، وبعدها أرتدي ثيابي قطعة تلو الأخرى. أعلم ما تفكر فيه، كما لو كان لدي أربعون قطعة ملابس لأرتديها. رغم ذلك، تمنيت لو أمتلك ذلك بالفعل بحيث يمكنني ارتداء ملابس مختلفة كل يوم. أترى، لدي عُمر لأفكر فيه. كل الفتيات في الورشة كانوا يحبونه كذلك. يجئن في الصباح، وعيونهن مرسومة تمامًا بالأحمر والقرمزي، مثل ببغاوات. أعرف أنني إذا وضعت الماكياج كان أبي سيضربني حتى يصبح وجهي فعليًّا بالأحمر والقرمزي من الكدمات، لذلك كنت أعوِّض الأمر بأن أعض شفتي قبل الذهاب للورشة لأعطيها قليلًا من الحمرة.
كنت أقل عاملة هناك، الأقل خبرة والأسوأ راتبًا. جعلتني النساء اللائي يعملن هناك على ماكينة الأوفرلوك أواجه أصعب الأوقات. *ليلا، أسرعي*، *أمسكي بتلك الكومة يا ليلا*، *امسحي الأرضية يا ليلا*، *ليلا، إلى أين تذهبين، أنت لم تنهي عملك بعد*. كل ما أردته أن يتوقفن عن الحديث معي بهذه الطريقة أمام عُمر. أقل ما أمكنهن عمله أن ينحينني جانبًا، لكن لا لم يفعلن! كان هناك *نيسيب*، التي عملت أيضًا على ماكينة أوفرلوك. كانت في السابعة عشرة فقط من عمرها، لكنها كانت أسطى خياطة. استطاعت بضغطة واحدة على البدال أن تخيط سروالًا بأكمله. كانت تنادي *عُمر!* ويدها حول وسطها، تلوك بلسانها كما لو كانت راقصة شرقية وتقول: *أقسم يا عُمر آبي، تلك البنطلونات مثل ركبة النحلة. دعنا نأخذ صورة معًا. ربما من الأفضل لك أن تخلعه! لا عار في ذلك! كيف يمكن لامرأة تقول مثل هذا الكلام! حدقت في عيني عُمر وتلاقت عينانا، لم أستطع دفع نفسي على قول كلمة واحدة له. بين الحين والآخر كان يعطيني الأوامر، قائلًا أشياء مثل: *خذي تلك القطعة إلى آيتن* أو *افصلي كهرباء ماكينة نيسيب*. كلما سمعته كنت أتحول إلى هلام *أذوب* في داخلي. أومئ، واندفع قبالته، موقنة أنه يعلم بسري الصغير، أنني كنت واقعة في غرامه. كان مقربًا إلى الفتيات الأخريات، حتى إنهن كن يدغدغن وينخرن بعضهن بعضًا أحيانًا، لاعبات كل الألعاب السخيفة للبنات معه. في البداية لم يولِ عُمر اهتمامًا بي. كنت عاملة متدنية بينما كان هو الرجل الأول في الورشة، مسؤولًا عن وضع التصاميم وقص النسيج.

.....

كان حلمي العمل على ماكينة الأوفرلوك. لم تكن تلك الماكينات مثل ماكينات الخياطة التقليدية، التي يمكن أن تكون متسامحة إذا ما أخطأت لأنك تستطيع أن تعيد النسيج لما كان عليه قبل الخطأ. ماكينات الأوفرلوك، على أي حال، لها سكين بعد الإبرة يقطع كل الزوائد من النسيج بينما تخيط، لذلك ما إن تقوم بغرزتك ينتهي الأمر. اعتقدت أنني إذا ما صرت عاملة على ماكينة أوفرلوك، ستتوقف الأخريات عن الكلام معي باحتقار أمام عُمر.

ذات يوم صرخت نيسيب في وجهي: *أوقفي التباطؤ هنا وهناك! القصاصات تتكوم بارتفاع جبل!* لاحظت عُمر واقفًا بالقرب منا. أطلق نظرة غاضبة باتجاه نيسيب، وقال لي: *تعالي معي. سنقوم بفرد بعض الأقمشة*. ما كان يعني أنه كان يبحث عني. لا تكلف نفسك عناء السؤال إذا ما كنتُ سعيدة في هذه اللحظة أم لا، كنت منتشية. فردنا القماش من طرف الطاولة إلى الطرف الآخر ثم عدنا به ثانية حتى نهاية يوم العمل. كان رائعًا... عملنا -عُمر وأنا- معًا لساعات في ذلك اليوم. تبين أن أخي عليه أن يعمل لوردية إضافية، ولم يحضر ليلتقطني. خرجت من الورشة وحدي وبدأت طريق عودتي إلى البيت. وقبل أن أبتعد كثيرًا سمعت صفارة من خلفي، فأسرعت خطوي. سمعت وقع أقدام أقرب فأقرب مني، ثم شعرت بيد على كتفي، *ابتعد عني بحق الجحيم!* صرخت متلفتة حولي. كان عُمر. قال لي بغمزة: *هل تريدين مني حقًّا أن أذهب؟* ابتسمت له لأول مرة. مشينا معًا لخمس دقائق، لكنني لم أجد الشجاعة لقول أي شيء. كان عُمر يضحك ضحكة مكتومة لنفسه وهو إلى جانبي. قلت عندما اقتربنا من شارعي: *سأمضي وحدي من هنا*. غمز لي مرة أخرى.

التلفزيون

هل وصلنا إلى شارعك، أيتها المرأة الشابة؟

قال: *أنت جميلة جدًّا*. أنت لست مثل الفتيات الأخريات في الورشة. أنت ذات طبيعة ومزاج طبيعي.. أنا معجب حقًّا بأنك لا تضعين الماكياج*، لم أستطع بالطبع دفع نفسي على قول: *لا شيء طبيعي بخصوص ذلك على الإطلاق. لو سمح لي أبي، كنت لآتي للورشة كل يوم في ثوب زفاف لألفت نظرك*. كان قلبي يدق بعنف مثل المدافع المنطلقة في رمضان ساعة الإفطار. قال: *حسنًا، أراكِ غدًا إذًا، ممسدًا خدي بيديه*. لم أنم طوال تلك الليلة. تقلصت معدتي بينما كنت راقدة أفكر في الأشياء التي قالها لي عُمر! نيسيب هذه ابتلعت حذاءها في فمها اليوم. آه، اختارني عُمر، هو يريدني! في اليوم التالي سرت حول المكان مرة أخرى. أعني، فردنا القماش معًا ثانية. بين الحين والآخر كان يقول شيئًا ما وكنت أضحك، ثم أقول شيئًا ويضحك. قذفتني الفتيات في الورشة بنظرات قذرة طوال اليوم. سمعت واحدة منهن تقول: *ما الذي يراه عُمر في تلك الفتاة؟ هي حتى لا تضع أحمر شفاه!* ونيسيب تلك! الطريقة التي ثبتت بها عينيها الزرقاوين عليّ، نظرة محدقة لشيطان صرف...

صرنا -أنا وعُمر- أنا فتاته، وهو فتاي بينما نسير للأمام وللخلف على طاولة القص لفرد قماشنا. سألني إذا ما أمكنني الخروج معه لنزهة بعد العمل، لكنني قلت له إنني لا أستطيع لأن أبويّ سيقتلانني لو فعلت. تنكد قليلًا، لكن لم يكن هناك ما يمكنني عمله. أعرف أنهم إذا ما اختلفوا معي فلن يسمحوا لي بالذهاب للعمل، وعندها لن أكون قادرة على رؤية عُمر أبدًا.

تقريبًا كل يوم كنا نبقى في العمل من الثامنة صباحًا حتى الثامنة مساء لأنه كان علينا القيام بعمل إضافي، رغم أننا لا نؤجر عليه. لكننا لم نبالِ، تحديدًا لأن عُمر كان هناك. رغم أننا كنا نرهق حتى الموت، عندما كان يقال إن علينا العمل وقتًا إضافيًّا، كنا سعداء بذلك؛ لأن الوقت الإضافي كان يعني وقتًا إضافيًّا مع عُمر! حتى إنني استطعت التوقف عن الغيرة من الطريقة التي تنظر بها الفتيات إليه. كن ينظرن إليه، لكنه كان ينظر إليّ أنا...

.....

رأيت الناس يتبادلون القبل في الأفلام، لكنني ما زلت لا أفهم كيف يستيطعون ضم شفاههم معًا

دون أن ترتطم أنوفهم. أترى، لدي مشكلة. كان عُمر فتاي، أليس كذلك؟ لكن ما الذي سأفعله إذا حاول تقبيلي؟ لم أقبِّل أي أحد من قبل، لذا كان من المؤكد أن الأمر سيكون كارثيًّا. كان هناك تمثال في الحديقة بالقرب من بيتنا، لذا توصلت لخطة. ذات صباح صحوت مبكرًا وذهبت للحديقة. لم يكن هناك أحد في المكان، لذا تسلقت التمثال، واقتربت حتى صرنا أنفًا لأنف أنا والتمثال، وشاركته شفتيّ. بمجرد أن حكت شفتاي شفتي التمثال، سمعت صفارة من خلفي. الحارس! انسحبت جريًا بأسرع ما أمكنني. إذًا، هناك حظيت بها، أول قبلة لي، مع تمثال. لكن عليّ أن أمنحه الفرصة، كان حقًّا من النوع الصامت بقوة.
ذات يوم انقطعت الكهرباء في الورشة، لذلك تركونا نأخذ استراحة. ذهبنا أنا وعُمر إلى الحديقة وجلسنا على الأريكة. أمسك بيدي قائلًا إنه أحبني، لكنه اشتكى من كوني شديدة الخجل. فكرت كيف أنه أخبرني ذات مرة أنه معجب بكوني عفيفة النفس، الآن يقول إن المراة يجب أن تكون أكثر انفتاحًا. كما يمكنك أن تتنبأ، أراد أن يقترب مني قليلًا، لذلك ذهبنا خلف شجرة. تمامًا بينما كان على وشك تقبيلي، سمعت صريرًا حادًّا لصفارة من خلفنا. بدا أنه كان مصيريًّا. منعني الحارس من الحصول على قبلة حقيقية هذه المرة. ابتكر عُمر كل أنواع الحلول. قال: *صديقي يملك مكانًا قريبًا. دعينا نذهب لهناك*، بالطبع أردت الذهاب، لكني كنت خائفة. إذا رآنا أي أحد ندخل إلى المكان معًا، لن ينتهي الأمر بضربي، بل سيتم طردي، بمعنى أنني لن أكون قادرة على رؤية عُمر مرة أخرى. شرحت له الموقف: *لا يمكنني الذهاب إلى منزل صديقك. لكن يمكنك أن تأتي طالبًا يدي من أبويَّ للزواج. لِمَ لا، بما أننا نحب بعضنا الآخر*. مرت سحابة قاتمة حتى ظننت أنها ستمطر. قال بتأتأة: *ما زال عليّ أن أؤدي خدمتي العسكرية، ونحن لا نملك أي مال..*. فأجبته: *عندما تذهب لأداء خدمتك العسكرية، سأبقى مع عائلتي في انتظارك*. قال: *سنرى ماذا سيحدث*. يمكنني القول إن شيئًا ما ضايقه!

.....

هناك طاولات طويلة في ورش الملابس تمتد بطول الغرفة. أسفل تلك الطاولات أماكن مفتوحة حيث يتم تخزين بالات الأقمشة. هل كنت تعلمين ذلك؟ نعم أعرف ذلك.
هناك شبان وسيمون، عادة حول التاسعة عشرة أو العشرين من العمر، يعملون في تلك الورش رؤساء عمال. معظم مالكي الورش يبحثون عن مثل أولئك الرجال حتى لا تشتكي الفتيات عندما يضطرهن للعمل أوقاتًا إضافية. ليس هذا فقط، بل سيكون أكثر استثارة حول الوظيفة وأقل رغبة في تركها. هل عرفتِ ذلك؟ أعرف، لكنني عرفت بالطريقة الصعبة! بين الحين والآخر يتقدم رؤساء العمال أولاء نحو الفتيات ويحاصروهن في ركن ما إذا استطاعوا ليداعبوهن. وإذا ما أتيحت فرصة أفضل، مثل أن يعملوا متأخرًا في الليل ولا يكون هناك أحد آخر معهم، يسحبون الفتيات أسفل طاولة القص لينالوا منهن. إذا عرف صاحب الورشة بالأمر، فلن يبالي. هل عرفتِ ذلك؟ رأيته بعيني.
لم يتطلب الأمر منا -أنا وعُمر- وقتًا لكي نفعلها. ذات يوم جاء أخي ليقلني إلى البيت، وتقريبًا في منتصف المسافة للبيت، أدركت أنني نسيت محفظتي في الورشة. قلت له سأعود على الفور واندفعت إلى داخل الورشة مسرعة.
كان هناك ضوء منبعث من إحدى النوافذ، لكن عندما حاولت فتح الباب، وجدته مغلقًا. أمعنت النظر من النافذة، ورأيت عُمر... مع نيسيب! كان راقدًا فوقها.

هكذا كان يحدث الأمر دائمًا في المسلسلات. البطلة تنسى شيئًا ما وعندما تعود لتلتقطه، يحدث لها شيء ما. عندما يحدث ذلك على شاشة التلفزيون، أنت تلعبين فقط الدور الرئيس. لكن في الحياة الواقعية تجدين أنك مجرد واحدة إضافية. في ذلك اليوم أدركت أنني لا شيء سوى واحدة إضافية.
عند عودتي إلى البيت قلت لأبي: *أنا لن أعود لهذا العمل*. سألني بصوت متشكك: *لماذا؟ هل حدث شيء ما؟* هززت رأسي بالنفي. قال وهو يقضم طرف شاربه: *حسنًا في تلك الحالة قومي بعملك فقط، وعودي إلى البيت في موعدك. نحن نعرف المالك، لا شيء سيئ يمكن أن يحدث لكِ هناك. أنت لا تستطيعين شراء منزل في إسطنبول بالبقاء في المنزل وعدم القيام بأي شيء*. بذلك، أغلق الموضوع نهائيًّا. وبكيت حتى الصباح.
التلفزيون
لا أريد أن أرى وجهك ثانية أبدًا!
في اليوم التالي في العمل كانت نيسيب تتلوى في مقعدها، مرسلة نظراتها لعُمر، محاولة جذب انتباهه. بالطبع كانت تفعل، لأنها وجدت سبيلها إليه وجعلته يخلع بنطاله. عُمر على أي حال لم يكن يفعل أيًّا من ذلك، يغمز لي فقط كأن شيئًا لم يحدث. لكنني رفضت مجرد النظر إليه. جذبني أثناء استراحة الغداء جانبًا: *ما سبب هذا الوجه المكتئب؟* وعندما لم أرد بكلمة سألني ثانية. قلت له: *رأيتك مع نيسيب الليلة الفائتة*. أوه، ذلك الأمر! لم يكن شيئًا، للرجال احتياجاتهم، أتعلمين. بما أنني لم أدعه يجد سبيلًا إليّ، لم يكن لديه خيار سوى أن يفعلها مع نيسيب... لذلك، فهي غلطتي لأنني دفعته لأسفل هذه الهوة! كما يقولون الذئب يلوم الحمل لتعكير مياه القناة حيث كانا يشربان... حدَّقت فيه بكل قوتي. ثم انفجرت في البكاء. قرص عُمر خدي قائلًا إن الأمر حدث فقط مرة واحدة وإنها كانت تغويه كثيرًا. قال إنه يحبني. *اسمعي، لماذا أرغب في أن أورط نفسي مع تلك الفتاة نيسيب؟ لقد فعلَتْها مع مئة رجل من قبل. لن يحدث ذلك ثانية أبدًا*. لم أغفر له، لكني حاولت نسيان الأمر. ما الذي أمكنني فعله، أنا أحببته.
.....
انقطعت الكهرباء مرة أخرى ذات يوم. عُمر لم يكن في الورشة لأنه ذهب إلى زيتنبورنو لشراء بعض القماش. بالضبط عندما كان كل واحد يغادر للذهاب لبيته، قالت لي إحدى عاملات الأوفرلوك: *ليلا، امسحي الورشة قبل أن تغادري*. لم أستطع الرفض، وعلى أي حال ما الذي سأفعله دون وجود عُمر ليسير معي للبيت؟ وإذا ذهبت إلى البيت، ستجعلني أمي أنظف البيت. ظنًّا مني أن عُمر قد يعود ونتمكن من الذهاب معًا في نزهة، أمسكت بالمكنسة وبدأت في الكنس.
خططت للأمر كله: عندما نتزوج أنا وعُمر، سنعود إلى البيت كل مساء، متعبين من العمل طويلًا. بالطبع في هذه الأثناء سأكون عاملة أوفرلوك. لأن عُمر هو رجل الورشة الأول *رئيس العمال*، سيكون أكثر إرهاقًا مني، لذا بينما يكون مسترخيًا، سأعد له العشاء. سآخذ دجاجة من الثلاجة وأفك الثلج فيها وأبدأ في تحمير بعض البطاطس، متأكدة من تسخين الفرن قبلها. بعد العشاء سأجلب الشاي وسنتحدث حول الورشة التي ينوي امتلاكها. ينمو الأطفال بين الصناديق للعمل على ماكينات الأوفرلوك، لكن على الأقل مستقبلهم سيكون مضمونًا. بمجرد أن نتزوج، لن يعبث عُمر مع أي من فتيات الورشة الأخريات ثانية، لأنني سأكون زوجته.
وسط خيالاتي، بينما أمسكت بالمكنسة كما لو كانت هي عمر زوجي المستقبلي ورقصت معها، ثم فُتِح الباب. سقط قلبي بين ضلوعي، لأنني اعتقدت أن عُمر قادم. نظرت فرأيت أنه كان هايري،

المدير. هايري آبي. قال ذاهبًا إلى طاولة القص: *واصلي الكنس*. وسحب نوتة مذكرات وبدأ في القيام ببعض الحسابات. كنت متوترة كوني وحدي في الورشة معه. لو جاز لي القول لقلت: *أنا ذاهبة* وهو ما سيكون خارج السياق لأن يوم العمل لم ينته بعد، ولم أستطع المغادرة دون أن يمنحني إذنًا بالذهاب.
أنهيت الكنس سريعًا لكن بمجرد أن استعددت للمغادرة، دمدم هايري قائلًا: *ليس بهذه السرعة، لم تمسحي الأرضيات بعد! ستصبح الورشة مليئة بالغبار*. ألم ير الذئب أن الغبار قد مسحه الحمل؟ وعندما أنهيت مهمة المسح، استجمعت شجاعتي لأقول: *انقطعت الكهرباء، لذا يجب أن يذهب كل واحد إلى بيته. لقد أنهيت التنظيف، لذا هل يمكنني العودة إلى البيت أنا كذلك؟ فقال: *رتبي القماش الذي تم قصه حتى يكون جاهزًا للخياطة غدًا*.

.....

تقولين لنفسك: *شعرت أن هناك شيئًا خطأ*. لكنك لا تريدين الاعتراف بالأمر. فما زال الرجل في سن والدي. ذهبت إلى طاولة القص لترتيب الأقمشة، داعية للرب طوال الوقت ألا يحاول فعل أي شيء معي. بدأ في سؤالي أسئلة: *هل أنت سعيدة بوظيفتك؟ هل تجدين العمل مرهقًا؟*. بالكاد أومأت برأسي للرد على أسئلته، لكنها تواصلت، واقترب مني بوصة ثم اقترب أكثر فاكثر.

.....

في ذهني، دائمًا ما يحدث الأمر بذات الطريقة: يسقطون شيئًا ما في شرابك ثم يحملك نحو عشرة رجال إلى منزل في الغابة، حيث يحبسونك. تلك هي طريقة الاغتصاب دائمًا في الأفلام، أليس كذلك؟ لكن لم يكن هذا ما حدث لي.
عرفت أن شيئًا ما كان خطأ، لكن في مثل تلك الوقات يخرج حسك العام أي حدسك من النافذة. لا يمكنك أن تقول لأحد ما في سن هايري: *لا تفكر في اغتصابي!* الفتيات المهذبات لا يفعلن ذلك.
قررت أن أنهي عملي بأسرع ما يمكنني قبل أن تفور رغباته خارج السيطرة. ناظرة لأسفل، رأيت الزر العلوي من بلوزتي قد انفك، وعندما نظرت لأعلى ثانية، رأيته يحدق في شق صدري. قمت بغلق بلوزتي وهمهمت: *أنا سأغادر الآن*.
اقترب هايري مني ووضع أصابعه حول عنقي. دفعت يده بعيدًا، وصرخت: *هايري، ما الذي تفعله؟* أمسك بي برسغه وعندما حاولت دفعه بعيدًا، استلبني تجاهه. كان هناك مقص على الطاولة يمكن أن يقطع في ثوب من القماش بسمك 50 سم. لكن الكهرباء كانت مقطوعة، لذلك فلن ينفع الأمر. كان حدّ المقص حادًّا جدًّا، واكتشفت أنني يمكنني أن أجرحه بنصل المقص. مددت يدي لأمسك بالمقص، لكن بمجرد أن امتدت أصابعي ليد المقص ضربني. ارتطم رأسي بالطاولة وأغمي عليّ على الأرض. ورغم أنني واصلت محاولة دفعه بعيدًا عني، دفعني بقوة في مساحة أسفل الطاولة. وبينما كنت أضربه فك حزام بنطاله. صرخت: *النجدة*. ضم يديه فوق فمي، وزحف فوقي، وقد فك سحاب بنطاله. لم يسمع أحد صرخاتي. لم يكن هناك أحد قادم. تشنجت محاولة دفعه بعيدًا عني. زمجر: *كان رائعًا عندما كنت تفعلينها مع عُمر! تفتحين ساقيك لأي داعر يأتي إليكِ، أيتها العاهرة!* قلت بأنين: *لكن أنا وعُمر لم نفعل شيئًا!* صفعني: *كفي عن الكذب، أيتها الساقطة*. عندما ضربته ثانية، وضع أصابع يديه حول عنقي، فقمت بعض يديه. فعلها هايري معي..

.....

كان هايري متوترًا، قائلًا إنه كان يجب عليّ أن أخبره أنني عذراء. سألني إذا ما كنت سأسبب له أي مشاكل. لم يكن مفترضًا بي أن أصعِّد من آمالي لأن هايري نال مني، لأنه بالفعل متزوج. وإذا أخبرت عائلتي، قال إنه سيقتلني. على أي حال، لو كنت فتاة فاضلة تمامًا، فلماذا كان عليهم أن يرسلوني مع عصبة من الرجال للعمل؟ قال هايري إنها ليست مسؤوليته تعليم أبي وعمي كيف عليهم التعامل مع المرأة في عائلتهم. قال مبتعدًا عني: *انتبهي لخطواتك!* قمت، محاولة تسوية ثيابي حتى لا يلاحظ أحد أنني تم اغتصابي للتو. إذا اكتشف أي أحد الأمر، فسوف يُقضى عليّ.

.....

هناك طاولات عريضة لقص القماش في ورش الملابس بها أماكن مفتوحة أسفلها لتصنيف ورص لفافات الأقمشة. هل كنت تعلمين ذلك؟ نعم أعرف. والكل يعرف أيضًا.

***

مغلقة خلفي الباب، سرت للخارج. علمت أنني لو أخبرت عائلتي، فسيقتلون هايري، ويصبحون قتلة، ومن ثم يذهبون للسجن. علمت أيضًا أن عُمر سيفعل الشيء نفسه لو أخبرته. كل واحد في دائرتي كان ليدخل عالمًا من المشاكل بسببي. تقريبًا مئة رجل فعلوها مع نيسيب. كنت سعيدة لأن عُمر سيتزوجني، وليس هي. لكن الآن نال مدير الورشة مني. هل سيظل عُمر راغبًا في الزواج مني؟ أبدًا. لأول مرة سرت عبر الشارع بنفسي. لم أذهب إلى البيت بمفردي من قبل أبدًا.

***

ذهبت مباشرة إلى غرفتي وزحفت إلى السرير، ملقية بالملاءات فوق رأسي. هرشت أمي رأسها داخل الغرفة وسألتني: *ماذا حدث؟* أجبتها بصوت خافت: *أنا مريضة*. لم تقل شيئًا. ثم عادت في الصباح. *استيقظي وإلا ستتأخرين على العمل*... *أنا مريضة*.

جاء أبي قائلًا إنني سأجلب العار لعائلتي إذا لم أذهب للعمل. قلت له: *لن أعود لذلك المكان أبدًا*. صفعني.. *لا يعجبني هذا الموقف منك، والطريقة التي تردين بها عليّ. هذه المدينة لم تجعل منكِ سوى ساقطة سليطة اللسان*. لم أجرؤ على القول: *لم تكن إسطنبول السبب يا أبي، كان هايري*. بعد الصرخ في وجهي لفترة أطول، صفعني عدة مرات أخرى، وانفجر غضبًا. بعدها بساعات قليلة سقطت في حالة من الحُمى ولم أستطع حقًّا الذهاب إلى العمل. كنت متأكدة أنه إذا اكتشف أي أحد ما جرى فإنهم سيقتلون هايري. لم أستطع التوقف عن التساؤل حول إذا ما كان عُمر سيظل راغبًا في الزواج مني. في نهاية المطاف، لم أرغب في النوم معه. في تلك الليلة طرق أحدهم الباب. سمعت أناسًا يتكلمون في مدخل البيت. كان هايري. قال إنه شعر بالقلق عليّ لأنني لم آتِ إلى العمل. هل هذا جيد لي؟ بالطبع، ما كان قلقًا حوله هو إذا ما كنت أخبرت عائلتي بما فعله معي من عدمه. مختبرًا الأمر، إذا جاز القول. أبي وعمي والمدير أتوا إلى حجرة نومي. كان أبي عطوفًا وحنونًا إلى أبعد حد معي أمام هايري.. *حلوتي، هايري جاء وكان قلقًا عليكِ لذلك أتى ليرى إن كنت على ما يرام*. أضاف الوحش هايري: *بالطبع أتيت. أنا أحب ليلا كما لو كانت ابنتي*. وقال ناظرًا في عينيّ: *اعتني بنفسك جيدًا يا ليلا، نحن نحتاج إليكِ جميعًا! أنا وعائلتك*. خرجا إلى الصالة. سمعت عمي يقول: *لم يكن عليك حقًّا أن تتحمل عناء الحضور. هذا أكثر مما يتوجب عليك*. أمكنني سماعهم يحتسون الشاي ويمضغون أيًّا ما كان الطعام الذي جلبه هايري لهم. وعند نقطة بعينها قال هايري إنه مهتم بالدخول في علاقة عمل مع أبي وعمي في مجال تجارة الأقمشة. سألوه عن أفضل طريقة للبدء في العمل. قال: *أعرف بعض التجار، سأعتني بكل

شيء. في نهاية المطاف نحن لسنا أغرابًا، أليس كذلك؟* أضاف أنه سيساعد في بداية المشروع بالمال. وبينما كان مغادرًا التفت لأبي وقال: *دع ليلا تستريح لأي وقت ترغب فيه. هي تحتاج إلى ذلك، الفتاة المسكينة، هي شديدة الهشاشة. والأعمال راكدة في تلك الأيام على كل حال. سأدفع لها مرتبها كالمعتاد*.

كانوا مبستمينٍ كلهم بعد أن أغلقوا الباب خلفه. جاء أبي وعمي إلى غرفتي. *أحسنت*. الرجل معجب بكِ حقًا. هو حتى من سيدفع لكِ راتبك أثناء إجازتك المرضية. الشيء الآخر الذي سيحدث، أنك ستكونين قادرة على أخذ إجازة صيفية كذلك! هاها..*.

بالطبع ليس لديهم أدنى فكرة لماذا كان هايري -الذي يجعلني أعمل كالكلاب، ولم يدفع لي أبدًا أجر العمل في الأوقات الإضافية- فجأة بكل هذا الكرم. على الفور نسوا أمري ما إن تحولوا للحديث حول تجارة الأقمشة التي سيبدؤون فيها. قال أبي: *إذا سار العمل على ما يرام، سنكون قادرين على شراء بيت خلال عام! مؤكد أن هايري هذا قديس بحق، أن يشمل عائلتنا برعايته. أنت تحتاج لرجل مثله في إسطنبول، أن يقيلك عندما تمر بأوقات عصيبة*. وقالت أمي: *يجب أن ندعو هايري على العشاء في وقت ما مع زوجته*. كانت تلمح ربما: *لا تقلقوا بشأن ليلا. هو رجل عجوز، ومتزوج أيضًا*. أمي لا تقول أي شيء صراحة أبدًا. هي تلمح فقط. لم أستطع قول أي شيء أنا الأخرى. ولم ألمح حتى بشيء.

***

على مدى شهر بأكمله لم أفعل شيئًا سوى مشاهدة التلفزيون. لم أعرف ماذا سأقول لعُمر. ماذا يمكنني أن أقول؟

التلفزيون: ممثلة في فيلم، قناة أورهان دي، أنا لست جديرة بك!

لقد تلطخت سمعتي *لقد فقدت عذريتي!

التلفزيون: ممثلة في فيلم، قناة إيرهان إيه تي في، اذهب بعيدًا...

لا أستطيع تحمل النظر في عينيك.

أنا لست الفتاة البريئة التي أحببتها ذات مرة!

التلفزيون: ممثل في فيلم، ستار تي في، هاك ما عليك عمله:

ابدئي حياة جديدة فاضلة كفتاة حلوة القلب!

لا أحد في عائلتي كلف نفسه عناء سؤالي لماذا لم أكن أذهب إلى عملي. يمكنك أن تتوقع أنهم ربما قالوا: *حبيبتي، هل كل شيء على ما يرام؟ إذا كنت مريضة، دعينا نذهب بكِ للطبيب. إذا لم يكن هناك شيء خطأ، لماذا لا ترغبين في العودة للعمل؟ هل حدث لك مكروه؟*. لكن لا. ولا سؤال واحد حتى. عرفت أنهم في نهاية الشهر سيحاولون إجباري على العودة للورشة، لكنني كنت أفضل الموت على ذلك. كنت شبه متأكدة أنني سأقتل هايري إذا ما ذهبت.

بعد شهر بدأ أبي يزعجني للذهاب للعمل، قائلًا إن الأمر سيبدو وكأننا نستغل كرم هايري معنا إذا لم نفعل. قلت: *لا لن أعود إلى هناك*. صفعني على خدي بظهر يده. *لا لن أعود*. صفعني ثانية، ولم يكتفِ بذلك، رماني بكل ما طالته يداه. انكمشت متحولة إلى ما يشبه كرة في سريري، والدم ينزف من فمي عندما أمطرني بالضربات على ظهري. قلت في النهاية: *حسنًا! سأذهب!* بعد أن ارتديت ثيابي تسللت خارج الباب الأمامي وبدأت السير في اتجاه الورشة. عند نقطة بعينها توقفت عند ناصية، بدت لي مكانًا مناسبًا كفاية للانتظار. عاجلًا رأيت رجلي ونبض قلبي آتيًا من

الشارع. كان مثل الريح ذاتها.. في تلك الأيام كلما فكرت في عُمر، وجدت نفسي دائمًا أقول أشياء وردية له مثل تلك. جرى عندما سمعني أنادي عليه. قلت: *عُمر، علينا أن نتكلم*. قال إنه كان قلقًا بحق عليّ.. *أين كنتِ؟ ليس لدينا تليفون في مقر إقامتنا لذلك لم أستطع الاتصال بكِ*. قال له هايري إنني كنت مريضة، التفسير الوحيد الذي قدمه لغيابي.. *ما الذي جرى؟ لقد غبت لشهر بأكمله. كدت أن أجن من القلق!* ثم سأل لماذا وجهي مليء بالسحجات والكدمات. أردت أن أسأله إذا ما كان انتهز فرصة غيابي كي *يفرد القماش مع نيسيب* لكني لم أملك الجرأة لقول الكلمات. قلت: *عليّ أن أخبرك بشيء ما*. قال: *أعرف أين يمكننا أن نتكلم*.

أمسك بيدي وبدأ السير. في نهاية المطاف توقف أمام شقة في مبنى حيث يسكن صديق له. لم أبالِ إن رآنا أي أحد ندخلها معًا لأنني لم أكن أخطط للعودة إلى البيت. دخلنا الشقة، كان المكان في حالة فوضى، وبه أقذر حشية يمكن تخيلها لأعزب، ورائحته حادة وكريهة لطعام مُدهن. جلسنا وقال: *إذًا ما الذي يجري؟* أجبته: *عُمر خذني بعيدًا عن هنا، فلتهرب معي*. ارتعد. واصلت كلامي: *لا يمكنني العودة للورشة. أفضل الموت على ذلك. وأبي يظل يخبرني أنني يجب أن أذهب إلى العمل*. عرف ما الذي كنت سأصل إليه في كلامي. في تلك اللحظة بدا الأمر وكأن أبواب الورشة الحديدية الدوارة تقعقع، وهي تسقط على وجه حبيب قلبي عُمر. ظل متشبثًا بالأمل، وقال: *لماذا لا تريدين العودة إلى العمل؟ هل حدث شيء ما؟* فتحت فمي لأجيب لكنني أغلقته ثانية خوفًا مما قد يُقدِم عليه إذا أخبرته بالحقيقة... *ليلا، ما الأمر؟* قلت: *انظر، عليك أن تعدني بأن تبقى هادئًا. هل تفعل؟* قال: *أوكي، أعدك*.

كل ما استطعت قوله كان *هايري*. ثم أصبت بالخرس. ضم قبضته وقفز على قدميه، قائلًا إنه سيقتل هايري. ألقيت بنفسي عند قدميه، وتوسلت إليه: *عُمر، أرجوك لا تفعل! أنت شاب في مقتبل عمرك. هل الأمر يستحق أن تقضي بقية عمرك في السجن؟ أي خسارة لشبابك عندئذ! إذا كنت تحبني، اهرب معي الليلة، لكن إذا لم تعد راغبًا فيّ أكثر.. عُمر لم يكن خطئي أجبرني على فعل ذلك*. كنت مختنقة بالتنهدات حتى إنني لم أستطع قول أي شيء آخر. ركع على ركبتيه أمامي وأخذني بين ذراعيه، باكيًا معي. عاد للخلف للحظة، ومسح الدموع من على خديّ ثم ضمني بقوة إلى صدره. قال: *لا تقلقي من أي شيء، انتظريني في الحديقة الليلة. سآتي إليكِ وسنذهب معًا إلى بلدتي. لدي عائلة هناك، يمكننا البقاء معهم*.

هل كان الأمر كذلك؟ هل يمكن أن يكون سهلًا لهذه الدرجة؟ بدا أن كل مخاوفي كانت من لا شيء. كان عُمر فعلًا أميرًا. كانت الدموع لا تزال تنهمر على خدودي. بعد أن قبّلها وضع شفتيه على شفتيّ. لم تتلامس أنوفنا ولا مرة بينما كنا نقبل أحدنا الآخر. ثم سحب شريطة شعري. في الحقيقة لم أرغب في القيام بالأمر في تلك الشقة القذرة لعازب، لكني لم أقل أي شيء. في نهاية المطاف، إذا كان راغبًا في النيل مني مثل زوجته، فتاة تم اغتصابها، من أقول إنني لن أنام معه ما لم يكن لدينا ملاءات بيضاء رقيقة وناضرة؟ كنت خارجة عن نطاق عقلي غائبة عن وعيي بالفعل. عندما انتهى، ارتدينا ثيابنا وغادرنا. قال عُمر إنه سيجد طريقة للحصول على بعض المال وسألني إن كان معي بطاقة هوية. قال: *حسنًا، قابليني في الحديقة في التاسعة*. بعدها سننطلق إلى موطن رأس عُمر، حيث سأمنحه يدي ليتزوجني. ثم خطر على بالي. أين يكون موطن رأسه؟

***

ذهبت إلى الحديقة لأنتظره. ماذا تتوقع؟ لم يكن لدي أي مكان آخر لأذهب إليه. وكان هناك تمثال،

أول رجل قبلته في حياتي! ما إن جلست هناك ناظرة إليه، وأنا في انتظار الرجل الذي قبلته قبل أقل من ساعة.
وهايري آبي؟ لم تكن هناك قبلات يومها. كل ما أردته هو أن أخرج من إسطنبول دون أن يريق عُمر أي دماء. كان عطوفًا جدًّا.. لا يزال، عرفت أن الأمر سيضايقه أنني لم أعد عذراء عندما وصلنا لخطوة الزواج. بالطبع، ضايقه الأمر، هو كان رجلًا. لكن مع الوقت، سينسى. ذلك ما اعتقدته. كما يقولون، سيتحول كل شيء إلى مجرد ماء أسفل الجسر. بينما جلست هناك منتظرة، سمعت الأذان لصلاة الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء. دقت الساعة التاسعة لكن عُمر لم يظهر له أثر. أنتظر، أنتظر، أنتظر! لم يكن هناك شيء آخر يمكنني عمله. بدأت أتساءل إذا كان قد تراجع، خوفًا أن عائلتي ستطارده إذا أخذني بعيدًا وهرب معي. إذا آلمك رأسك، فاقطعه، تمامًا مثلما تخلع ضرسًا يؤلمك. لا، عُمر حبيبي لن يتركني ممددة هنا هكذا. لا بد أنه قتل هايري وتم القبض عليه! كان ذلك هو التفسير الوحيد. كل المشاكل كانت بسببي... كان على ما يرام أثناء النهار، لكنه بدأ في الشراب بنهاية اليوم. هكذا كان الأمر. ثم ذهب لمديرنا وطعنه بالسكين. هذا الحمَل البائس أسرف في شرب بعض النبيذ وانطلق إلى الجبال ليصطاد الذئب... الآن نحن بعد العاشرة. تخيلت السيناريو: يذهب أخي للورشة فلا يجدني. المدير -إذا كان لا يزال حيًّا- يقول له: *ليلا لم تحضر اليوم أبدًا*. وبالطبع، ستضيف نيسيب الزيت على النار وتقول مقهقهة: *من يدري إلى أين ذهبت ليلا هذه؟*.
دقت الساعة معلنة آخر نداء لصلاة العشاء. لم يكن هناك سبيل يمكنني من العودة إلى البيت في هذا التوقيت. أعلم أن عائلتي ستكون غاضبة بشدة عليّ. آه، عُمر... لم أستطع منع نفسي من التساؤل ماذا لو لم يكن قد قتل هايري لكنه هرب عوضًا عن ذلك؟ لا، قلت لنفسي، لا بد أنه قتل هايري! وسانتظره لعشرين عامًا. سنتزوج في السجن، لِمَ لا؟ رأيت ذلك في الأفلام. وبينما أنا في انتظاره سأنتقل للعيش مع أمه، وسينتظر كلانا عُمر. ربما لم يقتل هايري، ربما لا يزال يحاول الحصول على بعض المال.
هناك ذلك الفيلم، بطولة إبراهيم تاتسليسيز وبيريهان سافاس: *الكذبة*. حيث ينتظر إبراهيم في مشهد بيريهان في محطة القطار، لكنها لم تأت أبدًا. انتظر، وانتظر، فاقدًا عقله ببطء، ونمت لحيته أطول فأطول بمرور الوقت. ذلك ما شعرت به أثناء انتظاري لعُمر. وبعدها تمامًا كما في ذلك الفيلم، أتى جرو يتمسح فيّ. حاوطته بذراعي، تمامًا كما فعل إبراهيم في الفيلم، وبدأت أغني تلك الأغنية من محطة القطار، والدموع في عينيّ:

هذا العالم، بكل متعته وبؤسه،
المصير الذي يشكل كل غد،
كلها أكاذيب، أكاذيب، أكاذيب...
هذا السرور بالحياة، هذه الفتنة بها،
التي تقطع فينا مثل سكين،
هي كلها أكاذيب، أكاذيب، أكاذيب.

بالنظر لأعلى، لاحظت عددًا من صبية الجيران النافخين في الغراء اجتمعوا معًا يصفقون ويتصايحون. كانت الساعة الواحدة صباحًا. قلت لنفسي، لا، لقد مارسنا الحب أنا وعُمر. لن يهجرني الآن. ثم مرة أخرى، لم يكن هو من فضَّ بكارتي، فلا لوم عليه إذا لم يتزوجني. رغم ذلك، هل كان حبيبي عُمر من نوع الرجال الذي كان يبحث فقط عن سبيل لينال مني، ثم يقول لا

تكلميني ثانية أبدًا؟ لا بد أنه قتل هايري، كان ذلك هو التفسير الوحيد... بدأ المزيد من الرجال الذين يبدون كالأشباح يتجولون حول الحديقة. طبيعي أنني كنت خائفة. لدرجة أنني رغبت إن استطعت الحديث إلى هايري بطريقة ما، لأنني كنت متأكدة أن عائلتي ستقتله إذا ذهبت إلى البيت في هذه الساعة. سيقولون: *ماذا تظنين أنك كنت تفعلين في الشوارع طوال الليل؟* كيف لي أن أعرف، هذا لم يحدث معي من قبل أبدًا. عندها لاحظت أن أخي الأكبر حسين كان جالسًا صامتًا على الأريكة إلى جانبي. حاولت، بشيء من الذعر، أن أزيحه لكنه أمسك بي بذراعه بقوة، وقال: *الكل في البيت يشعر بالقلق لدرجة المرض، ماذا تفعلين بالخارج هنا؟*. وأخبرني أنهم جميعًا بالخارج يحاولون العثور عليّ. *كنا على وشك الذهاب للبوليس، لكننا لم نرغب أن يبدأ الناس في إطلاق الشائعات. ذهبنا لعملك، لكن عندما قال إن هايري ذكر أنه لم يرَني... لم أستطع كبح نفسي:
هايري لا يزال حيًّا؟ عندها فهمت لماذا لم يظهر عُمر؛ هو ببساطة لا يريدني. حبيبي عُمر، اقتلعني من حياته مثل خيط متدلٍ من ماكينة الأوفرلوك!
قال حسين: *هيا بنا، سأتأكد بنفسي أنهم لن يكونوا قساة معكِ عندما نصل إلى البيت*.
لن أذهب.
قومي، الكل يكاد القلق يقتله.
كنت أثق في حسين. كان الوحيد من إخوتي الذي لم يضربني أبدًا. بدأنا السير في طريق العودة إلى البيت، وحسين خلفي بخطوات قليلة.

***

عندما فتحت عينيّ، وجدت نفسي بالمستشفى. عرفت طوال الوقت أن أبي سيضربني. حسين لم يفعل شيئًا ليحميني، غير الهمهمة مرة أو مرتين: *توقف يا أبي*. قبل أن ينسل بعيدًا. بدأ الضرب مع صراخ أبي عليّ: *أين كنت؟* لا أتذكر ماذا قال أيضًا لأنني أغمي عليّ. واصل أبي وهو لا يزال غاضبًا ركلي في معدتي. في العادة هم لا يأخذونني للمستشفى، لكنهم عندما رأوا الدماء تنزف من بين ساقيّ أصيبوا بالرعب، أنني ربما سأموت، ما سيضعهم فعليًّا في مأزق حرج. عندما أفقت، رأيت أفراد العائلة واقفين حول سريري. جاء طبيب وقال: *لم نستطع إنقاذ الجنين*. كان ذلك عندما اكتشفت أنني كنت حاملًا. بالطبع في طفل هايري، وليس عُمر. مارسنا الحب أنا وعُمر في اليوم السابق للحادثة، والذي يعني بالطبع أنه ليس وقتًا كافيًا لأن أحمل وأفقد الجنين. على أي حال عندما قال الطبيب كلماته تلك، التفت الجميع ليحدق بي، وبدا لي أنني أستطيع رؤية حجر قبري يلمع في عيونهم. خرج الطبيب من الحجرة. كان أبي ليقتلني في الحال، لكن من المحتمل أنه تراجع خوفًا من أن يقع في مشكلة مع البوليس. في النهاية، كنا في مستشفى حكومي. بالنظر لأبي في عينيه، قلت: *لقد كان هايري أجبرني على فعلها معه!* اندفع أبي وعمي خارجين من الحجرة. كنت متأكدة أنهما سيقتلان هايري لذلك لم أكن خائفة. سيقتلانه ثم سيتعفنان في السجن، وسأنجو، ليس فقط من هايري، بل ومن أبي وعمي.

***

لم أفهم لماذا لم يقتلوني. في النهاية ذهبنا إلى البيت. عاد أبي وعمي بعد الذهاب لرؤية هايري، لم يبدوا مثل قتلة بأي شكل. قضيا ساعات يتهامسان مع بعضهما خلف الأبواب المغلقة، وسار أبي حول المنزل وهو يقضم في شاربه. بالنسبة لأمي، فقد جلست في الركن مغمغمة لنفسها: *لقد دُمرِت الفتاة، من سيرضى بها الآن؟* قرب المساء دق أحدهم الباب. من يمكن أن يكون؟ نيسيب!

اندفعت إلى داخل حجرتي مزمجرة: *اللعنة عليكِ، أنت لم تدمري حياة عُمر فقط، أنت دمرتِ حياتي أيضًا!* جلست ناظرة إليها، متسائلة أي شيء آخر يخبئه لي القدر. سألتها: *أين عُمر؟* تبين أنه لم يذهب إلى العمل في ذلك اليوم. وعندما ذهب إخوتي ليسألوا عني، واكتشفوا أن عُمر كان غائبًا هو الآخر، خمنوا أنني هربت معه. قالت نيسيب: *أعرف أن لك علاقة بكل هذا*.
هكذا، في تلك الليلة التي كان من المفترض أن نهرب فيها أنا وعُمر معًا -في ذات اليوم الذي مارسنا فيه الحب- هرب هو حتى يتجنب التورط معي! ليس هذا فقط، لكنه فعلها وهرب وهو يعلم تمام العلم ما الذي يمكن أن يحدث لي. باختصار، نفد بجلده دون التفكير ولو لثانية في أي أحد آخر. نام معي، بقدم واحدة خارج الباب... حسنًا، سيدوس على كل شيء، لذلك لِمَ لا يحظى بما كان يسعى إليه؟ انطلق لخدمته العسكرية، لقد أعطيت له هدية وداع! لكن نيسيب لم تكن لتدع الأمر يمر. قالت: *أخبريني، ماذا فعلت لتجعليه يهرب بهذه الطريقة؟* قلت: *اسمعي يا نيسيب، ألم تكوني تغازلينه كل هذا الوقت، فقط لأنك تعلمين أنني واقعة في غرامه؟ وقعت في حبه مع سقوط القبعة، هذا يحدث لكِ طوال الوقت. لكني وقعت في حب شخص واحد في كل حياتي، هو عُمر. والآن هجرني*. عبست نيسيب وقالت: *أنا حامل*. تبين أنها في شهرها الثالث، وكان عُمر هو الأب، وقد عَلِم بالأمر. *ربما إذا لم يهرب بسببك، كان ليتزوج بي. عندما تدرك عائلتي أنني حامل، سيقتلونني*. لم أستطع منع نفسي من الضحك.
قلت: *نيسيب أنت حامل، وأنا كذلك. لو لم أفقد جنيني، كنا لنفجر عاصفة من الشائعات في الورشة*. للحظة أصيبت بالخرَس. ثم انفجرت في الضحك أيضًا. سألتني بين شهقات الهواء *هل كان عُمر؟* قلت: *لا، هايري. نال مني أسفل طاولة القص*. واصلنا الضحك، وبدأت تسأل: *إذًا أنت وهايري..*. قلت: *لا، هو اغتصبني*. عانقنا بعضنا بعضًا، والدموع في عيوننا.

***

لم يقتلوا هايري. في البداية لم أفهم ماذا يجري، ولم ينظر لي أحد في البيت في عينيّ مباشرة. لكن أبي وعمي كانت بينهما نقاشات ساخنة، حتى إخوتي كانوا مشاركين فيها. تبين أنهم كانوا يبحثون عن منزل ليشتروه! لكن من أين أتوا بالمال بحق السماء؟ انتحيت بحسين جانبًا: *من أين سيحصلون على الخميرة؟* نظر للأرض رافضًا الإجابة؛ ضغطت على الموضوع. في نهاية المطاف همهم: *هايري*. بمعنى أن هايري دفع لعائلتي ثمن فعلته معي. فيما بعد اكتشفت أنه أدار صفقة شاقة مع عمي.. لم أصدق.
لعام كامل سلمت كل شيء كسبته لأجل ذلك المنزل، لكن الآن، جنبًا إلى جنب مع هايري، كان أبي وعمي على وشك عقد صفقة تخصهم. كما يقولون، يحتاج الأمر لمئة يد عاملة لبناء جدار. أتمنى لو انهدم ذلك الجدار فوق رؤوسهم!
هكذا، بدلًا من قتل هايري، احتجزوني بالبيت. لمن كنت سأتكلم؟ لم يكن الأمر مثل أن أذهب إلى زيارة عُمر في الموقع الذي يؤدي فيه خدمته العسكرية. زارتني نيسيب ذات يوم وقالت: *أريدك أن تأتي معي عندما أقوم بعملية الإجهاض*. لكني شككت في أن يسمحوا لي بالخروج. بعدها بشهر أعلن كل من أبي وعمي أنهما سيزوجانني. الرجل كان أحد معارف عمي، سمسار في تجارة الأقمشة، وبالطبع، ميسور الحال، كما قالوا. ماتت زوجته وأبناؤه يعملون في هولندا. الشخص المناسب والمثالي! لا شيء يربطه بالأرض. كان يبحث عن واحدة يتزوجها، وكما يقولون إن الذئاب لا تذهب إلى محل عند الناصية لوجبتها التالية، ومال عليّ عمي لينصحني. أرشدوني

لأتصرف بشكل لائق بمجرد زواجي، الآن وقد تعلمت من أخطائي في الماضي، عليّ ألا أتسبب في أي مشاكل. أخبروني أنه رجل طيب، ربما أكبر مني بعض الشيء، لكنه ممتلئ بالتعاطف حتى إنه رحب بالزواج مني رغم عيبي!* بالطبع عندما تبحث عن التعاطف بين فكي ذئب، لا تفاجأ بأن تجد الحمَل هناك.
ربما لاحظت أنني معجبة بالمقولات حول الذئاب والخراف. حقيقة الأمر أن كلًّا من الذئاب والخراف لديهم قصصهم التي تُحكى عنهم.
***
لم أرتدِ ثوب زفاف. على أي حال، لم يكن خارج نطاق إخوتي أن يربطوا حبلًا أحمر حول خاصرتي -رمز العذرية- مع وضع ظروفي في الاعتبار. لم أقل أي شيء ولو لمرة واحدة كاعتراض على الأمر، مفترضة أن العيش مع زوجي الجديد لن يكون أسوأ بأي حال عن العيش في بيتي مع عائلتي. ولسوف أكتشف عاجلًا، على أي حال، أنها يمكن أن تكون أسوأ بمراحل.
أقارب أمي حضروا الزفاف بكامل هيئتهم فيما يمكن أن يوصف في أفضل الأحوال أنها رايات بلا جهد، للاحتفال بلا شيء على الإطلاق. جلّ ما أرادوه أن يسلموني له حتى يستطيعوا أن ينتقلوا إلى عالم الرفاهية في منزلهم الجديد.
أنا، ليلا، ابنة عثمان... محوت لقب أبي واتخذت لقب زوجي. بعض النساء لا يفعلن ذلك. رأيت الأمر على التلفزيون، يحتفظن بألقابهن عندما يتزوجن. لكن أمهلهن بعض البراح، ما الفارق، خاصة في حالتي؟ أبي تخلص مني فزوجني، لذلك لِمَ أحتفظ بلقبه؟ ثم بعدها، سامحني الله، هناك أولاء النساء اللائي يستخدمن كلا اللقبين. أنا لست التي ستتجول مستخدمة ألقاب كل من جلادينيي! فليذهبوا جميعًا للجحيم. أنا، ليلا، ابنة عثمان، صرت ليلا، زوجة رمزي. لو كان الأمر بيدي، كنت لأفضل أن أكون ليلا فقط. ولا حتى *ليلا وميكنوم* فقط ليلا صريحة.
***
أتعرفون كيف تتكلم بعض النساء مع أزواجهن: *أنا لا أقول إنك لا يجب أن تشرب! لكن إذا كنت ستفعل، فافعلها في البيت*. بلهاء! دعي زوجك يخرج ليشرب. بهذه الطريقة، عندما يصبح مخمورًا عنيفًا، سيبدأ بضرب النادل لا أنت. لكن زوجي شرب في البيت. أخبرني عمي أن رمزي رجل طيب عندما لا يشرب. لم أكن أعرف شيئًا عن ذلك لأنني لم أرَ الرجل متزنًا أبدًا. موت زوجته الأولى فيه شيء من الغموض. بعض الناس يقولون إنها ماتت من المرض بينما آخرون يقولون إنها انتحرت. إذا كان موتها انتحارًا فعلًا، كنت سأقول إنها كانت امرأة بلا ضمير، أمكنها أن تترك طفلًا في رعاية رجل كهذا؟ رغم ذلك، في الشهر الأول من زواجنا لم يضربني مرة واحدة. ذلك أفترض ما يسمونه *شهر العسل*.
ذات يوم عاد إلى البيت متزنًا بدرجة أو بأخرى لكنه كان في مزاج عكر. بعد أن شرب كأسين من مشروب *الراكي*، بدأ في الشكوى. حصل أخي حسين على بعض الأقمشة منه، ووعد بدفع ثمنها بعدها بعشرة أيام. في ذلك اليوم سأله رمزي عن السداد، فأجابه حسين: *أنا في وضع حرج بعض الشيء، لكنك ستحصل على مالك. نحن عائلة الآن، صحيح؟* حاولت تهدئته، مؤكدة له أنهم سيدفعون له، لكنه قفز على قدميه، وقلب الطاولة التي كانت أمامه. صرخ: *أولًا، لاموكِ عليّ، والآن يدوسون عليّ، لا يدفعون ثمن أي شيء لعين*.
لطالما أحببت أخي حسين لأنه لم يضربني. عندما كنا صغارًا لعبنا أنا وهو معًا كثيرًا. الآن بسببه

زوجي يضربني لأول مرة. ما إن بدأ في ضربي، الرجل البائس كان مدمنًا بشدة حتى إنه لم يستطع كبح جماح نفسه. بكيت: *أنا لن أعيش معك ثانية. سأعود لأبويّ*. لا أعرف ما الذي اعتقدته، لأن أبي يضربني هو الآخر. قال زوجي: *لن يقبلوا بعودتك لهم*. عندها أخبرني رمزي بالقصة الكاملة: عندما تزوجني، منح أبي وعمي مبلغًا من المال كثمن للعروس كانوا سيستخدمونه للبدء في تجارة الأقمشة خاصتهم؛ انهرت على الأريكة. كل ذلك الوقت كنت أتعجب لماذا أبقوا على حياتي. اختنقت بالدموع تمامًا حتى إن رمزي تعاطف معي، مقدمًا لي كوبًا من الراكي، الذي تقيأته في نوبة من الشعور بمرارة الغثيان. ثم قال: *الآن اخلعي ثيابك وهلمي للسرير*. لم أرغب في الأمر.

***

لا أستطيع أكل اللحم. حتى إن رائحته تصيبني بالغثيان. ذات يوم أحضر رمزي بعض اللحم وقال: *هاكي، اطبخي لنا هذا للعشاء*. قطعت اللحم لتحميره مع بعض الزيت وأعددت المائدة. بعد أن أتخم نفسه بالطعام دمدم: *كُلي!*.

قلت: *لا أستطيع أكل اللحم*.

أصرَّ: *كُلي!*، ليس اهتمامًا بي، بل مجرد عناد حاد.

واصل القول إنني لا آكل لأنني أفسدني التدليل دائمًا عندما كنت في بيت عائلتي. ما فرض سؤالًا: إذا لم نكن جائعين، لماذا باعوني ليتمكنوا من افتتاح محل قماش؟

قال: *من أنت بحق الجحيم لترفضي أكل الطعام الذي أجلبه إلى البيت بعد العمل كعبد طول اليوم؟*.

رفضت أن آكل.

ثم، بعد أن لكزني في أكثر من مكان من جسمي قليلًا، كوَّر قطعة من اللحم وأقحمها في فمي.

تقيأت.

ثم قال: *الآن اخلعي ملابسك وهلمي للسرير*.

لم أرغب في الأمر.

***

بالطبع لم يكن مسموحًا لي أن أغادر الشقة. ذات ليلة في نحو الساعة الثانية عشرة كان رمزي على وشك الوصول لدرجة السُكر البين، لكنه استنفد كل ما لديه من الراكي. توقعت أن يُغشى عليه في أي لحظة، لكنه فاجأني قائلًا: *اذهبي للمتجر وأحضري لي زجاجة أخرى. واحدة كبيرة*. لم أفهم. فعادة لم يكن مسموحًا لي بالخروج أثناء النهار، والآن يرسلني في منتصف الليل لشراء الخمر؟ كم هو متحضر! قلت: *رمزي، الوقت متأخر جدًّا حتى أخرج الآن. فقط عليك بالذهاب إلى السرير والنوم*.

صرخ: *افعلي ما قلته لكِ!*.

كنت خائفة. قلت: *أنت الرجل هنا. اذهب أنت وأحضر الزجاجة بنفسك*.

ألا ترين أنني مخمور تمامًا ولا أستطيع الخروج؟.

هذه رجولة منك حقًّا. قررت، لِمَ لا بحق الجحيم، مكتشفة أنه لا شيء أسوأ يمكن أن يحدث لي في الخارج في الشارع. ارتديت معطفي، وأغلقت كل أزراره حتى الرقبة، وذهبت للمتجر عند الناصية. كان هناك ستة أو سبعة رجال، نظروا لي شزرًا جميعًا وتغامزوا عندما دخلت المتجر.

أحضرت زجاجة الراكي، متجاهلة إياهم، لكني عند عودتي لم أستطع جعل الباب يفتح. في نهاية المطاف اكتشفت أنه أغلق الباب من الداخل. قرعت جرس الباب فلم أسمع ردًّا، وتوقعت أنه دخل في غيبوبة سكر. ولم يكن لدي أي مكان لأذهب إليه، لذا بدأت الدق بعنف على الباب. سمعت صوته يقول: *أيتها العاهرة، ماذا تفعلين بالخارج في هذه الساعة بحق الجحيم؟ عودي للماخور الذي أتيت منه!*.
رمزي، أنت أرسلتني، أنت تعرف أين كنت.
كنت أختبرك فقط، لأرى إذا ما كنت ستذهبين بالفعل. وأنت ذهبت عدوًا للخارج في منتصف الليل! عرفت من البداية أي ساقطة كنتِ. رغم ذلك. شعرت بالأسف عليك وأخذتك لبيتي.
بعض جيراننا أيقظهم صراخنا، واربوا أبوابهم وتلصصوا علينا. انفجرت في البكاء على الدرج، ممسكة بزجاجة الراكي، وأنا أعرف أنهم من المحتمل سيشهقون ويقولون: *الفتاة سكرت وبدأت في الدق بعنف على باب بيتها!* أحد جيراننا في الدور العلوي نزل وصرخ: *رمزي، الوقت متأخر! دع الفتاة البائسة تدخل*.
الأمر المضحك أنني كنت أعرف أنهم استطاعوا سماعه وهو يضربني طوال الوقت، لكن لا أحد منهم حاول أن يوقفه أبدًا. الآن كانوا خائفين أنني قد أتحول للدق على أبواب بيوتهم، لذا كانوا يتوسلون لرمزي كي يسمح لي بالدخول. هل قال أي واحد منهم: *يا له من بؤس، لِمَ لا تبقين معنا الليلة؟* بالطبع لا. في النهاية، سمح لي رمزي بالدخول. لكن ليس من دون اتهامي بالهرب في منتصف الليل وإحراجنا في عيون جيراننا، وهو ما استحققت عليه علقة ساخنة. ثم قال: *الآن اخلعي ملابسك وهلمي للسرير*.
لم أرغب في الأمر.

***

إذا سألتني سأقول: إن الناس يذهبون بعيدًا، ويبالغون، عندما يتكلمون عن الاغتصاب. يقولون: *إنه أمر قاسٍ جدًّا. الطريقة التي يدمر بها أولئك المغتصبون حيوات تلك الفتيات*. أرى تلك الفتيات في الأخبار على شاشة التلفزيون، وهن يغطين وجوههن بأيديهن، وعيونهن باكية. لكن لماذا يثيرون كل تلك الضجة حول الأمر؟ أنا أتعامل معه كل يوم!
هل فكرت أنني كنت سأقول: *مؤكد، فزوجي يضربني ضربًا مبرحًا، لكن في السرير كل شيء عظيم؟* في الشهر الأول أنا لم أقل أي شيء. ففي نهاية المطاف، كان زوجي. قلت لنفسي: *فقط أغمضي عينيك وافعلي ما هو متوقع منك*. فكرت في أشياء مثل: *هل أحكمت غلق الباب؟ هل أطفأت الموقد؟ من أين جاء عُمر فعلًا؟ هل حصلت نيسيب على عملية إجهاض؟*.
ثم ضربني رمزي لأول مرة. بالطبع لم أرغب في ممارسة الجنس معه. لم أرغب أبدًا في النوم معه، لكني في تلك الليلة لم أكن في حالة مزاجية تسمح حقًّا بالقيام بالأمر، لذلك قاومته بعض الشيء. ضربني أكثر قليلًا، ثم أمسك برقبتي ضاغطًا عليها، دافعًا ساقيّ ليفتحهما، وفعلها معي. بعدها كنت أشعر بالغثيان وأنا معه. قلت لنفسي: *ليلا، لا تدعي ذلك الرجل ينال منكِ!* كنت أحاول الهرب كلما أمسك بي، ثم يبدأ كل شيء مرة أخرى... لم أشعر بأي معنى للأمر في أي مرة، زوجوني للرجل لأنني اُغتصبت، ثم كان زوجي يغتصبني، تقريبًا كل يوم.
عاجلًا بما يكفي توقف الأمر عن إزعاجي. لم يبقَ سوى ذلك الخدر الأرعن الذي يأتي من الشعور بالكثير من الغثيان.

جعلني ذلك أتساءل إذا ما شعر أي أحد بذلك الشعور. هل قرأت من قبل أبدًا قصة إخبارية عن الزوج الذي اغتصب زوجته؟ بالطبع لا. عندما تكونين متزوجة، لا يعد الاغتصاب اغتصابًا. هم فقط يسجلونه في خانة التظاهر باللعب الخجول على لوح اللعب، نوع من المتعة القديمة المغتصبة! رغم ذلك، لا يمكنني أن آخذ الأمر على زوجي. في نهاية المطاف، أنا متزوجة من الرجل الذي يغتصبني. أنا لم أذهب أبدًا إلى السرير مع أي أحد لأنني أردت الأمر فعليًّا. مع هايري، هو أجبرني. مع عُمر، فعلتها لأحافظ على مشاعره. ومع زوجي، فعلها ضد إرادتي. الرجل الوحيد الذي قبلته برغبة مني هو التمثال في الحديقة!

النساء يقدمن على كل أنواع الأمور على أمل أن يحظين بحمل. يذهبن للأطباء، ويصلين في الأضرحة... المغفلات! لِمَ يجهدن أنفسهن؟ حتى يمكنهن الإنجاب، فقط لجلب كائن بائس لحياة بائسة؟

يعود الفضل لنيسيب، إنها أجهضت في المرة الأولى التي حملت فيها. الفتاة تملك قلبًا إنسانيًّا بحق. هل تعتقد أنني قاسية لأني لا أرغب في أن أحظى بأطفال من هذا الرجل؟ لدي فائض من ضمير يحدثني بذلك. في كل الأحوال، صرت حاملًا ثانية، لكن ذات يوم ضربني رمزي بعنف بالغ حتى أجهضت في ذلك الجنين أيضًا، الحمد لله. لكن كما يقولون، المرة الثالثة لها مفعول السحر ففي تلك المرة عاش الجنين. لم يكن زوجي ليسمح لي بقضاء أي وقت مع نيسيب قائلًا، إن هناك شيئًا شيطانيًّا بخصوصها. فعلت كل ما أمكنني لأجهض تلك المرة أيضًا؛ أحمل أشياء ثقيلة، وأترك نفسي للتدحرج على الأرض، وأمتثل لضرب زوجي... لكن بلا فائدة. كنت لأجري عملية إجهاض لكني لم أملك أي مال، طلبت من أمي أن تمنحني بعض المال لكنها رفضت، مؤكدة أن الإجهاض حرام. قلت: *أمي، إنك ظننت أنك قمت بالشيء الصحيح لكن انظري لحالي الآن. زوجي يضربني بأسوأ مما كان يفعل أبي على الإطلاق، وهو مدمن كحول أيضًا*. بحثت عن حل بشكل يائس، لكني في ذلك الوقت كنت في الشهر الخامس من الحمل، وبدا الحمل واضحًا عليّ تمامًا. كنت أحاول حتى حينها إخفاء الأمر، حتى إنني لم أزد في الوزن كثيرًا. وعندما أدرك رمزي أنني سأرزق بطفل، توقف عن ضربي، واكتفى بصفعي فقط.

على كل حال، في نهاية المطاف وضعت المولود. هكذا، هل كان ولدًا أم بنتًا؟ بالطبع أردت ولدًا حتى يتجنب الضرب والمعاناة التي يسببها الآباء لبناتهم، لكن لم تكن الحال كذلك في السجلات. اكتأب رمزي لفترة لأنني لم أمنحه ولدًا، لكنه كان لديه ولدان من زواجه الأول، لذلك تجاوز الأمر سريعًا.

بعد أن ولدت ابنتنا، كان لدينا قليل من الزائرين، ما كان يعني أن أرى قليلًا من الناس بعيدًا عن رمزي. ولحسن الحظ أبقيت على شقتنا مرتبة إلى حد كبير. فعندما شعرت بآلام الوضع الأولى -والتي أتت مبكرة فعلًا- أول شيء قمت به أن قفزت على قدمي ونظفت النوافذ.

زارتني عائلتي. إنك لتظن أنه طالما لدي عائلة فإنه يمكنني أن آمل في قليل من الذهب حتى لا أشعر بالإهانة أمام زوجي. لكن بطبيعة الحال كان هذا توقعًا يفوق الواقع. عمي، وأبي، وأمي، وإخوتي جاؤوا وجلبوا معهم واحدة من تلك الحُلي من الذهب المقلد لعين الحسود، ووضعوها على وسادة المولودة. وعندما رآها زوجي ضاقت عيناه محدقًا فيّ بكثير من الاحتقار حتى إنني رغبت في الاختفاء من على وجه الأرض.

لم يكن الشعور بالعار أمامه أسوأ ما في الأمر؛ فيما بعد ذكرني بهذه الإهانة التي ألحقتها بي

عائلتي ليس فقط بالكلمات ولكن باللكمات التي كالها لي على وجهي. آه، لو أن عائلتي ساندتني أبدًا، لم يكن ليعاملني بهذه المعاملة بالغة السوء من البداية، لكن هذا هو المنظور الذي يراني به الأهل وذوو القربى. ومن تظن الشخص الوحيد الذي اشترى للمولودة عملة ذهبية؟ إنها نيسيب! ولأنني وضعت المولود لتوي لم يستطع رمزي أن يطردها عندما طرقت الباب. وما إن ناولتني العملة، همست: *لا تدعي زوجك يعلم عن الأمر شيئًا، احتفظي بها لوقت حاجة*. بالطبع، في تلك الليلة قدمت العملة لرمزي قائلة: *لقد جاء أبي بهذه اليوم، لأنه لم يجد محل مجوهرات مفتوحًا بالأمس*. وبذلك استطعت استعادة كرامة عائلتي.

قلت: *أريد أن أسميها*. لم يهتم بالأمر. في النهاية كانت مجرد فتاة. فكرت في البداية في بعض الأسماء الخيالية مثل دينيس، أو نهير، أو كاجلا.. لكن أين ستفضي بها مثل تلك الأسماء؟ ليس وكأنها ستذهب إلى أي مكان على أي حال. إذا رغبت في أن تخطو خطوة واحدة خارج الباب الأمامي إلى البيت، سيكسر أبوها لها ساقيها. فكرت في أسماء وردية أكثر مثل ياسمين، أو زعفرانة، أو نرجس.. لكن كيف لها أن تتفتح مع أب مثل رمزي حولها؟ في نهاية المطاف قررت أنه من الأفضل منحها اسمًا لا يوقعها في أي مشاكل، اسمًا بسيطًا شديد اللياقة: آيسي.

كانت آيسي في تلك الأيام مصدر بركة لي، وصرنا أفضل صديقتين. في النهار، كنا وحدنا أنا وآيسي والتلفزيون، نمارس حياتنا. *صغيرتي آيسي، ماذا تفعلين؟* حسنًا، ما الذي يمكنها فعله بحق الجحيم؟ كانت مجرد طفلة تنظر حولها بعيون فضولية. كنت قد نضجت تمامًا، فماذا فعلت بحياتي؟

التلفزيون

علم النفس هو الجانب الأهم في تربية الأطفال، إذا أردت تنشئة طفلك ليكون فردًا واثقًا بنفسه، عليك أن تجعله يشعر أنك تثق به وتحترم خياراته. أطفالك يجب أن يقرروا لأنفسهم ماذا يريدون أن يكونوا عندما يكبرون، وعليك أن تقوم بدورك في تنوير أفراد عائلتك لا أن تدير حيواتهم.

مَن -أتساءل- الذي تولى دور الأب لتلك العينة البدائية للإنسان على شاشة التلفزيون، أخبرني. ذلك الذي سأمنحه طفله!

لكنني لم أملك آمالًا عظيمة لآيسي. طالما أنها لا تتعرض للضرب، سيكون ذلك كافيًا، وحرصت على التأكد من أنها ستحصل على تعليم بحيث يمكنها الحصول على وظيفة محترمة عندما تكبر. كان زوجي كبير السن فعليًّا، لذلك صليت للرب أنه سيكون ميتًا عندما تبلغ العشرين من عمرها. في الوقت نفسه، إذا تمكنا من صونها من الهرب، ربما تقع في الحب وتتزوج... عندما كانت صغيرة، كان كل شيء على ما يرام. لكن في سن الخامسة أو السادسة، بدأت تفهم ما يجري حولها في واقعنا المنزلي وذلك عندما انهار كل شيء.

التلفزيون

الأطفال مثل المغناطيس الذي يجذب الطاقة السلبية من العالم حولهم. ذلك هو السبب في أن الآباء لا يجب عليهم أن يتشاجروا أمام أطفالهم.

حاولت المزاح مع رمزي في كل نزوة كانت تنتابه حتى لا نتشاجر، لكن محاولاتي كانت بلا طائل في نهاية المطاف. حتى عندما جرني لغرفة النوم لم أكن أنطق بكلمة، كل ذلك حتى لا تلتقط آيسي أيًّا من الطاقة السلبية. أجلت أفكاري حتى الوقت الذي يموت فيه رمزي، ما الذي سأرتديه في جنازته، ما الذي سنفعله إذا لم يمت عندما تكبر آيسي. دعوت أمي وأعمامي لزيارتي في الإجازات

حتى تتمكن آيسي من اللعب مع أبناء عمومتها وأن ترى أن عائلتنا لا تتكون فقط مني أنا وأبيها المجنون.

***

حاول رمزي أن يضرب آيسي ذات مرة لكنها بدأت في الشكوى والبكاء، أحسست بدافع ملح أن أرمي بنفسي بينهما، لأنني أقسمت ألا يحدث ذلك أبدًا. في النهاية، أنا عانيت على يدي أبي وعمي وإخوتي، ناهيك عن زوجي، وهايري، وعُمر... وخطر لي أن قائمة معاناتي طويلة بما يكفي. وبينما أنني ربما أسيئت معاملتي بواسطة الرجال، لكني كنت أكثر غضبًا من أمي. فهي لم تتقدم ولو لمرة واحدة للدفاع عني عندما كان أبي يضربني. كنت أرغب أن أقول لها شيئًا مثل: *افعلي شيئًا، احمي ابنتك، أنا طفلتك... إذا كان عليك أن تفعلي، فتلقي الضرب بنفسك حتى بدلًا مني*. ثم مرة أخرى، نالت نصيبها العادل من الضرب بالمثل. لكن رغم ذلك، كيف يمكنك الاحتفاظ بشركك مغلقًا عندما يتألم طفلك؟ هي لم تقل أي شيء عندما كان أبي يضربني أو عندما أطلقني إلى العمل وكنت وقتها مجرد مراهقة. لم تقل شيئًا عندما اكتشفت أنني تم اغتصابي. لم تقل شيئًا عندما زوجوني عنوة. ثم بدأ زوجي في ضربي ومرة أخرى لم تقل شيئًا. إذا ما كانت دافعت عني مرة، ربما كنت عانيت من نفس العذابات التي تجرعتها، لكن على الأقل كنت سأعرف أن هناك أحدًا ما يعتني بأمري. فقد فطر قلبي التفكير في مثل هذه الأمور، لكني لا أحب أمي. إذا مرضت حقًّا، سوف أعتني بها لكني لن أبالي أبدًا إذا ماتت!

كان رمزي رجلًا مجنونًا. قبل عودته إلى البيت من العمل، كنت أحذر آيسي: *عندما يعود أبوك إلى البيت، لا تقولي كلمة واحدة. فقط ارقدي واذهبي إلى النوم*. ذات ليلة سَكِرَ وأدار بعض الموسيقى. وقال: *قومي! وارقصي معي!* قمت ورقصت، آملة تجنب الشجار معه. قال: *هزي أردافك!*. فعلت ما أراد. ثم قال: *آيسي، قومي! ارقصي أنت أيضًا!* لم تشعر آيسي بمشاعر حب تجاه أبيها، لأنها رأته يضربني كل يوم؛ رفضت أن تقوم؛ سحب رزمة من المال من محفظته وقال *ارقصي!* ثم بدأ في عد بعض العملات، التي خطط أن يقحمها في صدرها بينما ترقص. لم تتزحزح آيسي. أمسك بها من ذراعها وعندها قطعت عليه الطريق وقلت: *دعها وشأنها*. بدأت آيسي في البكاء، تحولت إلى رمزي وقلت: *دعها تذهب لحجرتها. حتى يمكننا أن نتحدث حول الأمر*. أنا أم متحضرة تمامًا، كما ترى. صحبت آيسي لحجرتها فبدأ في الصراخ متهمًا إياي بأنني أقلب الفتاة عليه. قلت: *ما الذي يدفعني لذلك! هي تراك وأنت تضربني، هذا هو سبب خوفها منك*. قام بتمزيق المال الذي سحبه من محفظته ورماه في وجهي. ثم دمدم: *أنت، لقد تجاوزت حدودك هذه المرة*. ثم صفعني بقوة حتى إنني سقطت مغشيًّا عليّ على الأرض. اندفعت آيسي من حجرتها صارخة: *لا تضرب أمي!*.

هل بدأت في البكاء؟ بالطبع فعلت، وكانت دموع الفرح. كانت تلك المرة الأولى في حياتي التي دافع فيها أحد عني. جذب آيسي في نوبة غضب ودفعها إلى الحائط، فبدأت في البكاء. في نوبة غضب مساوية لنوبته أمسكت بوعاء كان على طاولة الطعام وقذفت به بعنف على رأسه من الخلف، وجذبت آيسي بين ذراعيّ، وتسللت خارجة من الباب. كل جيراننا سمعوا الشجار ووقفوا في مدخل المبنى، محدقين فيّ بينما كنت أصرخ: *أنا ذاهبة لأقدم بلاغًا للبوليس! لسنوات كان زوجي يضربني، وكلكم تعلمون بالأمر. تعالوا معي، وقولوا إنكم شاهدتم الأمر*. كانت الدموع لا تزال تنهمر على خدودي. إحدى الجارات قالت: *حسنًا، هو زوجك، عليك التكيف مع الأمر*.

وصفقت الباب خلفها. قالت جارة أخرى: *فكري في ما هو الأفضل لابنتك*. وأغلقت بابها هي الأخرى. أما الجار عند نهاية الممر فقال: *تلك الأمور تحدث في الزواج*. وأغلق بابه. خرجت مغلقة الباب ورائي.
ضممت ابنتي بقوة إلى صدري بينما سرت، وعند نقطة بعينها، أدركت أننا نسير في الحديقة. أنتم تعرفون الحديقة التي أتحدث عنها، تلك التي فيها التمثال، أول رجل قبلته على الإطلاق. حلوتي، أبوك مجرد تمثال! لكن ماذا سنفعل؟ آخر مرة كنت فيها في تلك الحديقة، انتهى بي الأمر عائدة إلى البيت وزوجوني عنوة لرمزي، عرفت أنهم لن يقبلوا بعودتي لبيت العائلة. أجلست ابنتي، وأمسكت بيديها واتجهت إلى مخفر الشرطة. قلت للشرطي: *هاك الأمر، زوجي يضربني. حتى الآن أبقيت فمي مغلقًا، لكن عندما ضرب ابنتي، لم أعد أستطيع تحمل الأمر أكثر من ذلك. أريد تقديم بلاغ ضده. عليك باحتجازه*.
كتبوا تقريرًا وقالوا: *عليك بمقابلة المدعي العام غدًا*. ثم قالوا إنني أحتاج على الأقل إلى شاهدين. *جيراني لن يفعلوا. لكنهم جميعًا سمعوا الشجار الذي دار بيننا. ألا يمكنكم فقط أن تستدعوهم؟* تبين لي أن ذلك لن يحدث.
عليهم أن يحضروا بإرادتهم الحرة. قالوا لي: *انظري يا امرأة، هذا شأن عائلي. ولديك طفلة لتفكري في أمرها. ربما من الأفضل أن تتخلي عن البلاغ برمته*.
لكن كيف من المفترض أن أفعل؟ أن أترك النهايات تحدث على مسؤوليتي؟ أنا كنت على حافة الهاوية. وغمغمت: *اللعنة عليه وعلى ماله. هو يستخدمه ضدي على أي حال. اليوم فقط قام بتمزيق حزمة من المال ورماها في وجهي*.
نظر أحد الضباط إليَّ: *مزق المال؟ حسنًا، ذلك يغير الأمور بالتأكيد. يغيرها كثيرًا في الواقع. يمكنك تقديم بلاغ ضده لأنه قام بتشويه عملتنا الوطنية*. عندها أدركت أنني أنا نفسي لا أساوي سنتًا لعينًا في عين القانون. بعد كل شيء فعله بي، الجريمة الوحيدة التي ارتكبها هي تمزيق حفنة من الليرات التركية.
قلت: *حسنًا، خذه للحجز فقط. لا يعنيني إن كان من أجل ما فعله معي أم من أجل المال*. لكن ذلك لن يكون كافيًا، لا بد أن آتي بالعملة الممزقة لأثبت عليه الجريمة. وقالوا: *فكري جيدًا. تشويه العملة الوطنية جريمة خطيرة. جريمة تجلب العار لمرتكبها، مثل الاغتصاب. إذا ما أرادت ابنتك يومًا أن تلتحق بوظيفة حكومية، ستؤخذ هذه الجريمة ضدها إذا ما ظهر في السجلات أن أحدًا في عائلتها فعل مثل هذه الفعلة*. بالطبع قررت عدم تقديم البلاغ. ربما حازت آيسي قدرًا من التعليم وابتعدت عن قبضة أبيها. على أي حال، كيف يفترض أن أجد المال الذي مزقه؟ لقد غادرت البيت في منتصف الليل، سيقتلني لحظة أن يراني أمامه.
صرنا -أنا وابنتي- وحيدتين، ولا أملك أدنى فكرة عما سنفعل. رأيت في البرامج الحوارية النسائية على شاشة التلفزيون أن هناك ملاجئ للنساء. وتبينت أنه من الصعب علينا أن نجد إحداها أثناء الليل. وليس لدينا مكان لنذهب إليه؛ لذا بدأت التحرك في اتجاه منزل والديَّ. على أي حال، عندما وصلت، قلت لنفسي: *ليلا، لا تتجرئي على وضع قدم لك هناك. آخر مرة فعلتها انتهى بي الأمر في المستشفى. فكري فيما سيفعلونه مع ابنتك*. لذلك قررت الذهاب للمستشفى حيث انتهى بي الأمر بعد آخر مرة ضربني فيها أبي. دائمًا هناك العديد من الناس ينتظرون في حجرة الطوارئ ولا يسأل أحد أبدًا ما الذي يفعلونه هناك، لذلك تصورت أننا يمكننا البقاء حتى الصباح، وبعدها

نبحث عن ملجأ النساء. عندها سمعت صوتًا من خلفي. استدرت ورأيت أنه لم يكن هناك أحد سوى زوجي. دمدم في أذني قائلًا: *انتبهي لما تفعلين أو أنني سأخبر ابنتك عن الفوضى التي سببتها لنفسك وكيف باعك لي أبوك. ربما أنها لن تفهم الآن، لكنها ستفعل يومًا ما*. سرت رعشة أسفل عمودي الفقري من التفكير في أن ابنتي ستكتشف حقيقة ما جرى لي. لم يكن لدي أي ملاحظة. تقدمت رمزي وبدأت السير صامتة عائدة إلى البيت.

***

قالت لي الممرضة: *أراك يوم الإثنين!* لكني عرفت أنني لن أستطيع البقاء بالمستشفى كل هذا الوقت. كانت آيسي في البيت مع رمزي، ولم يكن هناك سبيل أن أتركها معه ليومين آخرين. كان عليَّ أن أحميها منه بشكل أو بآخر. تمامًا مثلما عليَّ أن أحمي الطفل الرابض في بطني من قسوته. نعم، كنت حاملًا مرة أخرى. كنت أبقي على الأمر سرًّا، آملة أن أستطيع الحصول على إجهاض قبل أن يكتشف الحمل، لكني لم أستطع الحصول على أي مال. ذات يوم ضربني رمزي بعنف حتى بدأت النزف من بين ساقيّ وأخذني للمستشفى، لكنني لم أجهض. لا تظن أن لدي مشاعر سيئة تجاه الأطفال لأنني لا أفعل، لكن لأني أحب الأطفال لم أرغب أن أحظى بأي طفل من زوجي هذا. كنت سأكون أمًّا أفضل إذا لم أنجب آيسي أبدًا، على الأقل عندها، كانت تجنبت حياة بمثل هذا البؤس.

هكذا، كنت هناك، ذاهبة إلى البيت، مفكرة كيف أحمي أطفالي من أبيهم... لكن، انتبه، لقد أدركت للتو أنني لم أخبرك بقصة مظلوم. ربما يمكنني الآن أيضًا إذا ما سمعت أبدًا من الممرضة بأمره، يمكنك أن تخبرها بما حدث فعلًا.

كنت صغيرة، في نحو الخامسة أو السادسة من عمري، لكني ما زلت أذكر الأمر بتفاصيله. عندها، كانت العائلة تدللني بأسلوبها الخاص. كنت الطفل الخامس بعد أربعة صبية، أتبختر في البيت كما لو كنت أملكه. كان أبي يصفف لي شعري، وكان عمي يمرر لي بعض المال كمصروف من آن لآخر. في تلك الأيام، لم يكن لدينا أي مشاكل مالية. زرعنا الحقول، وأدرنا حياتنا، مضت الأيام مريحة. وكان لدينا شاة تُدعى كوبيلي، وكانت حاملًا وقتها. وبدلًا من أن ندع راعي الغنم يعتني بها، كنا -أنا وأخي حسين- نصحبها إلى المراعي. حسنًا ذات يوم كنا مع كوبيلي في الحديقة وبدأت فجأة في التصرف بغرابة ولذا قال حسين: *اجري! واستدعي ماما*. جريت بأقصى سرعة أمكنني الجري بها وعندما عدت كانت كوبيلي تضع حملها. وقف الحمل منتصبًا على ساقيه المرتجفتين. صحيحًا تمامًا. وفي الأسبوع التالي عقرت حية الشاة كوبيلي وماتت تاركة الحمل يتيمًا وهو في طور الرضاعة. قال عمي: *دعونا نذبحه*. فلا شيء يفوق لحم الحمل*. ألقيت بنفسي على الأرض في نوبة من البكاء والدموع، *أرجوكم لا تفعلوا*. ماذا يمكنك أن تفعل إذا بكت فتاة صغيرة؟ تصفعها عدة مرات لتخرسها، لكنهم لم يفعلوا، حتى إن عمي شعر بالأسى تجاهي، وقال: *حسنًا، اعتني به أنت. سنسميه مظلوم*. فكرت في تلك الأيام أن العالم هو عالم عمي. فيما بعد علمت أنه هو من سماني ليلا. هكذا فصلنا قمة صندوق كرتون حيث قمنا بوضع مظلوم فيه، هناك في بيتنا، وقمت على إرضاعه بزجاجة جلبها أبي من البلدة. كنت أرضعه بالحليب كل يوم كما لو كان طفلًا رضيعًا. وهو ما كان أمرًا جيدًا عندما تكون صغيرًا، لكن عندما نما الحمل، بدأ في الخروج من الصندوق والقفز في كل مكان. اشتكت أمي من ذلك: *صار البيت قذرًا بسبب هذا الشيء لقد كبر بما يكفي ليبقى في الحظيرة*. جاريتها في الأمر بشرط ألا يقوموا بذبحه. بعدها لم

يستطيعوا إخراجي من الحظيرة حيث قضيت وقتي كله معه، أطعمه بيدي. لعبنا سويًّا -أنا ومظلوم- وأمضيت ساعات في مناوشته. ذات يوم جاء عمي وقال: *عمتك تنتظرك. ستقوم بتفصيل ثوب جديد لك*. جريت بسرعة البرق إليها. اشترت لي بعض القماش قرمزي اللون، وبعد أن أخذت مقاساتي قصته وخاطته لي ثوبًا. عندما انتهت، ناولتني إياه، وأمسكت بمرآة، لم أستطع تصديق عينيّ! لم أبدُ أبدًا بهذا الجمال. عرجت على الحظيرة في طريق عودتي إلى البيت لكن مظلوم لم يكن هناك. جريت إلى البيت، فقط لأجد الجميع حول المائدة بنظرات جائعة في عيونهم، وعلقت الرائحة اللزجة للحم في الهواء. دون أن أفهم ما الذي كان يجري سألت أمي: *ماما، لا أستطيع إيجاد مظلوم*. التفت عمي إليّ وقال: *ما الذي تتحدثين عنه يا فتاة، مظلوم في مقام الشرف!* كان ذلك عندما لاحظت وعاء ضخمًا من اللحم المشوي في وسط طاولة الطعام.

قام الجميع بغسل يديه وهم يطلقون النكات، مبتسمين لوعاء اللحم، وقالت أمي: *حسنًا، عزيزي مظلوم الصغير الحلو، كنت تتقافز في كل مكان في الأيام الماضية! دعنا نراك تقفز الآن!* ضحك الجميع. لقد ذبحوا مظلوم وطبخوه. والآن هم يضحكون، ويحشون أفواههم بلحمه؛ تدفقت الدموع على خدودي، وقلبت رائحة اللحم معدتي وتقيأت في حجرة المعيشة.

منذ ذلك الحين لم أعد قادرة على أكل اللحم.

***

في تلك الليلة، لاحظت ليلا لأول مرة ظلال بالونات حمراء يبيعها بائع متجول في الطريق إلى البيت، فناولت ابنتها إحداها، ومالت تجاهها وهمست:

حلوتي، سنغادر قبل أن يصحو أبوك، أوكي؟ عليك أن تعرفي أنني أحمل أختًا لك في بطني. لا أستطيع تركك مع أبيك يا آيسي. لذلك سنقفز ثلاثتنا من البلكونة تمامًا مثل هذه البلونة هنا. فكري فيما سيبدو الأمر لأختك إذا لم نغادر الآن. أنت أقوى مني. ولا أستطيع حمايتك. هل تذكرين كيف قمت بحمايتي منه؟ لكن الآن سنقوم معًا بحماية أختك. سنقفز من البلكونة، ممسكين ببعضنا، وسنذهب لأب آخر، أب سيكون حنونًا على الجميع: سنذهب إلى الله. سيصفف لنا شعرنا، شعرك، وشعري، وشعر أختك.

أخذت ليلا ابنتها بين ذراعيها وخرجت إلى البلكونة. تسلقت السور الحديد، ثم قفزت.

***

الجزء الثاني

أخمن أنك لم تعجب بتلك النهاية كثيرًا. مؤكد، الأمر سهل بالنسبة لك أن تجلس هناك تحلم أحلام يقظة عن المستقبل، بالتفكير في طرق أخرى يمكن لتلك الأشياء أن تنتهي إليه. لكن بعدها هناك هذا:

امرأة تقتل زوجها، وتطلق المحكمة سراحها.

ليلا تاسي، في السابعة والعشرين من عمرها، طعنت زوجها حتى الموت عندما عاد إلى البيت مخمورًا وبدأ بضربها هي وبناتها. حكمت المحكمة أنها قتلته بسبب الإثارة والتوتر المتزايد، واضعة في اعتبارها أن لها طفلين وكانت حاملًا وقتها، وأمر القاضي بالإفراج عنها.

لا تقلب الصفحة. قصص أخبار الفضائح في خلفية الجرائد يمكن فقط أن تكون عدة سطور، لكنها تخبرنا الكثير عن الموت واليأس.

على أي حال، أنت تعرفني. بالطبع لم نلتق أبدًا لكنك إن رأيتني في الشارع فسوف تتعرف عليّ. ربما تتذكر اسمي حتى بشكل مبهم. *امرأة تقتل زوجها، وتطلق المحكمة سراحها* هذه أنا.

طوال تلك السنوات كنت أعض لساني لكظم غيظي لكن ذلك كان بلا هدف، فقط استمر التعذيب. ليس مثل تأديتك الخدمة العسكرية حيث تقول لنفسك: *سأتجاوز هذا وأنتهي منه*. إنه قتل. في البداية تفكرين أنك ستنجين من زوجك. لكن لديك ابنة، ويخطر لك *لا أريد أن يقول الناس لابنتي الصغيرة إنها ابنة قاتلة*. سواء أعجبك الأمر أم لا، جزّ على أسنانك وتقبّل الأمر.

***

قال الأطباء لزوجي إنني كنت حاملًا. كان ذلك وقتًا لا غنى عنه، شيء مثل ذلك قد حدث. أنا فقط لا أفهم الأمر، أليس لدى أولئك الأطباء أي شيء أفضل يفعلونه بينما أنا غائبة عن الوعي في المستشفى غير إجراء اختبار حمل لي؟ كان واضحًا أنني مضروبة. لذا ألا يتوجب عليهم أن يضمدوني فقط، وأن يضعوا حقنة وريدية في ذراعي، وأن يرسلوني إلى البيت؟ لا، ليس هكذا يجري الأمر. حسنًا، أنت أدركت أنني حامل، لكن هل يجب عليك أن تقف وتخبر زوجي؟ ربما كنت أفضل إنقاذ حياة الطفل بأن أجري عملية إجهاض قبل أن يكتشف زوجي الأمر.

على أي حال، غادرنا المستشفى وعدنا إلى البيت. في الماضي، كان زوجي خائفًا من هروبي منه. بشكل ما كانت تلك احتمالية في ذهنه. لذلك، تلك كانت الأيام الأكثر إشعاعًا في حياتي! عدت إلى البيت معه، مرعوبة لأنه عرف نقطة ضعفي -أن تكتشف آيسي كيف تم تزويجي ضد إرادتي لأنني اغتصبت- ويمكنه استخدام المسألة ضدي؛ عرف أنني لن أهجره. لم أستطع، وبفعل هذه السلطة عليّ فقد كل سيطرة على نفسه. عندما كنت حاملًا في آيسي كان حذرًا بشكل ما، يعمل على التأكد حين يضربني ألا يركلني في بطني. لكنه الآن لم يكن يتراجع عن فعلها. كنت خائفة من الكيفية التي ستتحول بها مشاعر طفلتي إذا استمرت الأمور هكذا، لذا قررت البحث عن حل.

قالت أمي: *نأمل أن يكون صبيًّا. إذا تبين لزوجك أنك ستمنحينه ولدًا في هذا العمر، سيكون متساهلًا معك بعدها. ففي النهاية هو رجل*. لم يقل رمزي أي شيء أبدًا عن رغبته في ابن، لكن كانت لأمي وجهة نظر. كأمل أخير أجريت اختبار موجات صوتية لأكتشف إذا كان الجنين صبيًّا أم فتاة. بالطبع كانت فتاة.

ذات ليلة أعطيته الأخبار الطيبة: *سوف نرزق بصبي. أجريت اختبار موجات. مؤكد أنه صبي*.

لأول مرة منذ عرفته لان تعبير وجه رمزي لثانية. بدا تقريبًا كائنًا بشريًّا. كان أكثر سعادة عما رأيته من قبل على الإطلاق. هذه المرة سيحظى بابن بار، ليس مثل أولئك الأبناء العاقين، أبنائه في هولندا الذين لا يتصلون به أبدًا.
بينما شرب رمزي للاحتفال، بدأت في خياطة زوج من الجوارب للمولود. قرر رمزي تسمية الصبي أرسلان. بالنسبة لمحل الأقمشة، أرسلان سيتولى إدارته عندما يكبر. بين الحين والآخر بعد المدرسة سيمر عليه حتى يستطيع تعلم أسس التجارة ويرى من يجلب ماذا، وكيف يُسعر البضاعة، وأفضل السبل للتفاوض على تخفيض الأسعار. لكن أهم شيء أن رمزي لديه الآن طريقة لتدليل ابنه، والتي لم يمتلكها من قبل. سيجلس أرسلان على مقعد مكتب أبيه وينادي على بائع الشاي: *أنت هناك، أحضر لي شايًا واجعله لاذعًا!* وبرغم أنهم أكبر منه سنًّا، سيرأس أرسلان المساعدين في المحل. تلك هي الطريقة التي سيدلل بها رمزي.
بحلول الوقت الذي أنهيت فيه أول جورب وبدأت في حياكة الثاني، انتقل رمزي إلى سنوات أرسلان في المدرسة الثانوية. بالطبع لن يذهب أرسلان للمدرسة حتى يمكنه القيام بالخدمة المدنية. لا شيء يفوق أن تكون في بيزنيس التجارة أليس كذلك؟ فما الهدف من العمل في مكتب حكومي؟ ثم هناك الراتب أيضًا... لا، لا، أرسلان لن يتطفل على تلك الوظائف، لكن يمكنه أن يدرس للتسلية إذا كان هذا ما يريده، وبهذه الطريقة لن يكون لأحد أي ميزة تفوقه، ففي النهاية سيكون رجل البيت.
قبل بلوغه الثامنة عشرة عامًا، سيتسلل ذات ليلة ويأخذ سيارة أبيه، وبعدها سيتصل البوليس من القسم. *ما هذا بحق الجحيم، لا يستطيع هذا الولد أن يبقى ساكنًا للحظة واحدة؟ هو بحق رقعة قديمة من سفينة متهالكة*. في القسم سيتصرف كما أنه يقرصه في أذنيه تأنيبًا له، لكنه في تلك الإجازة الأسبوعية سيبدأ في تعليمه كيف يقود بحيث إنه ما إن يتم الثامنة عشرة يمكنه الحصول على رخصة قيادة.
بطبيعة الحال، لن يحتاج للذهاب إلى الجامعة لأنه سيتولى إدارة الأعمال، لكن إذا أراد الذهاب فليكن، لكن إذا فعل، سيعني ذلك أنه سيكون ضابطًا أثناء خدمته العسكرية. لن يكون ملزمًا بالوضع الذي يعرضه للضرب مثل مرؤوسيه من الجنود. كان إخوته المقيمون في هولندا بلهاء ففشلوا في الدراسة. وعندما يرون أن أرسلان سيذهب إلى الجامعة، سيأكل فيهم الحسد. حسنًا، اجعلهم يعانون. رغم ذلك، مَن سمع عن خريج جامعي يعمل في محل للأقمشة؟ لكن يبقى أن أرسلان سيكون مختلفًا ولن يترك أباه دون سند. سينهي دراسته ويعلق شهادة الدبلوم على جدار المحل.
مع انتهائي من حياكة الجورب الثاني وانتقالي للحظة الخيلاء، كان أرسلان قد أنهى خدمته العسكرية ويدير الأعمال. سيجلس رمزي خارج المحل، يلعب الطاولة مع أصحاب المحلات الأخرى. سينادي أرسلان بين الحين والآخر على صبي المقهى: *أحضر لي كوبين من القهوة، واحدًا لي والآخر لأبي*.
لم يحب رمزي الفتيات اللائي التقى بهن أرسلان في الجامعة. بالطبع سيكون أرسلان طويلًا وسيمًا، وسيقضي وقته مع بعض الفتيات، وربما يريد الزواج من إحداهن. عندما سيتقدم رمزي للقيام بدور الأب. *انظر بني، أول كل شيء، ابتعد عن الفتيات اللائي يبدأن في العمل وهن صغيرات في السن. ثانيًا: ابتعد عن الفتيات اللاتي لم يفعلن شيئًا طوال حياتهن سوى الدراسة، فهن عرفن القليل عن العالم، أتعلم ما الذي أقصد؟ لا تجعلني أقول هذا لكن... حسنًا، سيكون لهن ماضٍ

قبل ظهورك في حياتهن. من يدري، مع كل هؤلاء الرجال حولهم، ما الذي ورطن أنفسهن فيه من أمور؟ ربما ستقول *وما أهمية ذلك؟* ربما حتى تعترض بالقول *لا علاقة لي بأي من هذا. ما حدث قد حدث، كله كان في الماضي. لكنك يوم تتزوج، فهذا الاتجاه المتسامح سينقلب للوجه الآخر. في هذه الحالة ستكون زوجتك وليست حبيبتك. ستراها بطريقة مختلفة، ستعتبرها ملكًا لك بطريقة مختلفة. في كل مرة تنظر فيها إليها ستفكر *مع من كانت قبلي؟* وكل رجل ستراه سيجعلك تتساءل *هل كانت -آسف، لكن هذه هي الحال- تمارس الجنس مع هذا الوغد؟* يا بني، هي ليست ملائمة لك*.

سيكون أرسلان مغتمًّا في البداية، لكن بعد التفكير في الأمر قليلًا، سيعود لرشده. سيقول مُقبلًا يد أبيه: *أبي، أنت محق، لقد قررت الانفصال عنها*. وسيبحث رمزي في الجوار، وفي نهاية المطاف سيجد فتاة ملاكًا من قريته لم يمسها صبي أبدًا من قبل.

سنشتري شقتين، واحدة فوق الأخرى. سينتقل أرسلان للشقة العلوية مع زوجته، وسنقيم نحن في الشقة السفلية لأننا سنكون قد كبرنا ولا نستطيع الصعود على كثير من السلالم. سيرزق أرسلان بثلاثة صبية، وبالطبع سيسمي الصبي الأول رمزي. والثاني والثالث سيكونان أركان وسيركان. وسيكون أرسلان بارًّا بأبيه دائمًا.

بعد إعداد طاجن أرز وأكواب من مشروب العيران في احتفال طهارة أحفاده، سيموت رمزي جالسًا على كرسيه. أنهيت حياكة أطراف الجوارب الزرقاء للمولود ووضعتهم في الوعاء الزجاجي في غرفة المعيشة، حتى لا ينسى رمزي أنني أحمل ابنه في بطني. لا يجب أن ينسى أبدًا؛ لأن ذلك هو السبيل الوحيد لحماية البنت الجنين، وبالنسبة للحظة مولدها... سأتعامل مع الأمر فيما بعد. كل هذا لأني أردت أن تولد الطفلة سليمة وبصحة جيدة.

في اليوم التالي اشترى رمزي الشاي لكل أصحاب المحلات الأخرى احتفالًا بابنه المنتظر. وفي تلك الليلة بدأت حياكة سترة زرقاء لأرسلان. واصل رمزي الكلام عن كيف سيشتري منزلًا وسيارة لابنه وسألني: *هل تحبين شراء أي شيء آخر؟ في نهاية المطاف أنت حامل*. لم أستطع تصديق أذني. عندها فهمت تلك الأمهات اللائي قلن: *لقد رزقت بصبي، كانت أكبر معجزة في حياتي*.

***

كانت الشهور المتبقية من حملي أفضل أيام حياتي؛ توقف عن ضربي تمامًا. وذات ليلة كنت أحيك قبعة زرقاء للمولود، وقلت لرمزي: *ذهبت للطبيب، وقال إن حملي في وضع حرج، وإنني قد أتعرض لإجهاض*. ابيض وجه رمزي وبدا مثل ملاءة، وقال: *حسنًا، في هذه الحالة عليك أن تكوني أكثر حرصًا. لا تجهدي نفسك*. أجبت: *الأمر ليس على هذا النحو، فقد قال الطبيب ألا أعرض نفسي لأي مضايقة أو ضغط نفسي*. قال: *تشاهدين تلك المسلسلات التلفزيونية طوال النهار ويتم القيام بكل المهام المنزلية. لكنها مجرد مسلسلات، هي ليست حقيقية. لماذا تفعلين ذلك بنفسك؟* دققت في تعبيره لأرى إن كان يلومني. لكنه كان جادًّا تمامًا. فمن الصعب القول، مع أناس مثله، إذا ما كانوا غافلين أم محض جاهلين بوضوح عن كيف تسير الأمور. ألا يدرك أنه من كان يعذبني؟

ذات ليلة بينما كنت أحيك سروالًا أزرق للمولود قلت: *رمزي، أخبرني الطبيب أن الجنين لا ينمو بشكل طبيعي لأنني أجلس في البيت دائمًا ولا أمارس أي نشاط رياضي، ونصحني بضرورة أن

أمشي لفترة كل يوم من أجل صحة الجنين*. أجاب: *حسنًا، خذي آيسي واخرجي ببطنك المنتفخة بالحمل إذًا، لن ينظر إليك رجل نظرة ثانية أبدًا*.
كان الأمر يعني أنني أستطيع الخروج وقتما أردت، ولن يقول: *اتصلت ولم تردي عليّ. أيتها العاهرة أين كنت بحق الجحيم؟*. النساء اللائي يقلن إن إنجاب الأطفال هو بمثابة الزج بهن في السجن لا يعرفن شيئًا لعينًا. وأمكنني أخيرًا استكشاف إسطنبول أثناء حملي في أرسلان.
كان رمزي يترك لي رزمة من المال كل صباح حتى أستطيع شراء ما أريد من طعام، ولم يسألني أبدًا كم أنفقت. كنت أقول لآيسي قبل أن نخرج: *إذا سأل أبوك أين ذهبنا، قولي له إننا ذهبنا إلى الحديقة*. وذهبنا لكل مكان... جامع السلطان أحمد، وميدان تقسيم، وأورتاكوي، وكل الأماكن السياحية في إسطنبول. ولِمَ لا؟ ألا تعتبر التمشية حول قصر توبكابي نوعًا من النزهة؟
ذات ليلة بينما كنت أحيك ملاءة زرقاء، قال رمزي: *قومي واذهبي إلى السرير*. قلت: *لكن يا رمزي، قال الطبيب إننا لا يجب أن نفعلها، خصوصًا في هذه المرحلة من الحمل، فهي أخطر فترة*. نظر إليّ شزرًا وعيناه تنطق بالكثير من الشك: *لكنهم لم يقولوا أي شيء كهذا عندما كنت حاملًا في آيسي*. قلت له: *حسنًا، لقد تقدم الطب كثيرًا منذئذ*.
سقط في حالة من الصمت. وبعد لحظات قال: *الطبيب على حق. ماذا لو أن شيئًا ما ارتطم برأس الجنين. أستغفر الله العظيم!*.
ألن ينتقم مني عندما أضع مولودة بنتًا؟ بالطبع سيفعل. لذلك كنت مرعوبة من أن ألد مبكرًا. كلما تأخرت الولادة كان أفضل.
ذات ليلة كنت أحيك سترة للمولود، اتصل رمزي، الذي كان مخمورًا وقتها، بابنيه في هولندا وأخبرهم أنه سيرزق بصبي، صبي حقيقي هذه المرة: *لا تتصلا بي ثانية أبدًا! أنتما أيها الوغدان العاقان لا تساويان بصقة مقارنة بأرسلان!* وصفق السماعة على التليفون.
ثم ذات ليلة أخرى كنت أحيك معاطف زرقاء للمولود، حين شعرت بآلام الولادة. هتف رمزي مضطربًا: *أرسلان سيأتي!* بالنسبة لي كانت النهاية آتية. انهمرت المياه من بين ساقيّ. قلت: *ليس بعد يا رمزي، ليس بعد*.

***

ناولوني مولودتي البنت. سألت: *هل هي بصحة جيدة؟* قالوا: *نعم*. لم يكن رمزي حاضرًا في الجوار لأراه. نظرت لما كان مفترضًا أن يكون أرسلان بين ذراعي، متسائلة إذا ما كانوا أخبروا رمزي بالأخبار الطيبة. *رزقت بفتاة!* تساءلت إذا ما أمكنني التلاعب بالأمر لبعض الوقت. أعني أنه لم يتفحص حفاضات آيسي عندما كانت رضيعة، فلماذا سيفعل هذه المرة؟ هذا هو أرسلان، بالطبع لديه عضو ذكري. سينظر رمزي إليه ويهتف *ما شاء الله*.
جاء رمزي للغرفة. ماذا كان مفترضًا بي أن أفعل بحق الجحيم؟ قررت أن أفضل خياراتي هي أن أبدأ في الندب وشدّ شعري: *أي نوع من الأماكن هذا؟ لا بد أنكم تمازحونني!*. وقلت صارخة في الممرضات: *ائتوني بالطبيب الذي فحص الموجات الصوتية وأخبرني أنني سأرزق بصبي!* أخبروني أنه قد أرسل للعمل في بلدة ماردين. قلت: *ألا تشعرون بالخجل؟*. ها هنا، كنت، يثيرني أنني سأرزق بمولود ولد، لكنكم ناولتموني فتاة. هل هذه نكتة سمجة؟ وللتأثير عليهم انفجرت في البكاء. *كنت أحيك سترات وملاءات لشهور.. أقسم يا رمزي، إن هذا كثير جدًّا لأتحمله*. تبقع وجه رمزي في حيرة *أعرف أنني وضعت مولودًا ولدًا! ربما خلطوا المواليد وأعطوا أرسلان

لأحد آخر. رمزي اذهب وأبحث عن صبينا!* بالطبع هو فكر في ذلك وسأل الممرضات، اللاتي طمأنوه أنه ليس هناك أي خلط في الأمر. أمسكت بالمولودة وأعطيتها له، بينما تنهمر الدموع على وجهي: *خذ هذا الشيء بعيدًا عن وجهي! لقد أخبروني أنني سألد ولدًا. ما الحق لديهم في أن يحطموا قلبي بهذه الطريقة؟ سيدفعون ثمن ما قالوه. سأقاضي هؤلاء الأوغاد!* نظر رمزي لي طويلًا وبعنف. قال: *توقفي عن الصراخ كامرأة مجنونة. هذه هي الحكومة التي نتكلم عنها هنا*. أنا لا أقول هذا لأنه زوجي، لكنه بين حين وآخر كان يقول أشياء منطقية.
ما إن خرج رمزي من الغرفة، تساءلت إذا ما كان انهار من الواقعة. بعد برهة عاد ومعه وشاح قرمزي قائلًا إن امرأة كانت تبيعه خارج غرفة الولادة. بمعنى، الحمد لله، أنه تقبل حقيقة أنه رزق بابنة أخرى. لكنه كبر مئة عام في ذلك اليوم من الصدمة والحزن. فقد كان لشهور يذهب هنا وهناك مواصلًا إخبار كل واحد أنه سيرزق بصبي، حتى إنه ذهب لأبعد من ذلك واشترى سلسلة ذهبية للمولود وكتب عليها اسم ابنه المستقبلي. وقال قبل أن يخرج من الغرفة: *سأذهب إلى البيت. سآتي لأخذك من هنا غدًا*. غمزت لابنتي وقلت: *الآن نحن في ورطة بحق*.

***

لم يحدث شيء جديد في حياتنا. عندما أفكر في تلك الأيام، تبدأ ذكرياتي عادة عبر سطور. *في تلك الليلة عاد إلى البيت وبدأ في الشراب*. لذلك كما كانت العادة في تلك الليلة بعينها عاد إلى البيت وتناول عدة كؤوس من الراكي. قمت بإرضاع المولودة ووضعتها في مهدها، دسستها مع ملاءة زرقاء فوقها وألبستها قفازاتها الزرقاء الصغيرة في يديها حتى لا تخدش وجهها أثناء النوم. ثم وضعت آيسي في سريرها هي الأخرى. ثم ذهبت إلى غرفة المعيشة فوجدت رمزي ينصت لأغنية حزينة في الراديو، والدموع في عينيه. لم يكن أول ما خطر على بالي *ماذا جرى؟* لا، فقط استندت إلى أكرة الباب وراقبته لبرهة. لم أر زوجي يبكي من قبل أبدًا. نظرت إليه بفضول بالغ، متسائلة كيف بدا له الأمر حين يعاني.
قال: *ليلا تعالي واجلسي*. صبّ لي كأسًا من الراكي. لم أحب الشراب مطلقًا وحتى عندما أصرّ رفضت شرب أي كمية. أخذ رشفة من كأسه وقال: *انظري، أعلم أنكم تظنونني شخصًا سيئًا، كلكم أنت، وآيسي، وحتى الرضيعة... ستكرهني حين تكبر. بسببك. حتى الآن حين أحملها وأحضنها فهي تصرخ*. كان هناك تلك الأفلام بطولة المغنيات السوداويات، أنت تعرف عمن أتحدث، لديهم دائمًا مشهد حيث يكون الرجل جالسًا هناك يشرب الخمر وعندما ندرك أن ما يفكر فيه هو جزء هام من قصة الفيلم، يتوقف ليأخذ رشفة من كأسه. وعندما يوشك أن يخبرنا بالجزء الأكثر إيلامًا في حكايته، يبتلع كل ما في كأسه دفعة واحدة. ذلك كان حال رمزي في تلك الليلة. كما لو كان سينفجر في الغناء في أي لحظة: *أنا وحيد، يا أصدقائي، وحيد تمامًا*.
أخذ رشفة أخرى بينما نظر من النافذة كما لو كان يحدق في الأفق. وقال: *لكن فكري فقط في كل شيء تحملته بسببك أنت والبنات*. وعندها تساقطت الدموع على خديه. *خمني من مرَّ عليّ في المحل اليوم؟* سألته: *من؟* أخذ رشفة أخرى وقال: *هايري*. *تقصد هايري آبي؟!* شربت بعض جرعات من الراكي، كان من المتوقع أن زوجي يعرفه. ليس معرفة شخصية، لكنهما يعرفان بعضهما بحكم العمل في ذات المجال. صب رمزي لنفسه كأسًا أخرى.
دخل عليّ المحل من الباب قائلًا: *السلام عليكم* كانت مثل رصاصة في رأسي. استدرت حولي، مفكرًا في لا شيء سوى ضربه ضربًا مبرحًا، لكني كبحت نفسي. أقصد هل لدي أي حق في أن

أقتل الرجل؟ في نهاية الأمر أنا تزوجت بك. لأمكنني أن أطعنه، لكن بعد ماذا؟ هل يمكنني القول *كنت أدافع عن شرفي؟* أعرف أنهم سيقولون: *لو كان الشرف مهمًّا لك بهذه الدرجة، فلماذا تزوجتها بعد أن اغتصبت؟* ألن يقولوا أيضًا: *بالتأكيد تزوجتها لأنها كانت صفقة جيدة. وكنت تعرف طوال تلك السنوات أين يوجد محل هايري. لذلك لِمَ لم تقتله قبلها؟* ماذا يمكنني أن أقول ردًّا على ذلك؟ عقد أبوها صفقة مع هايري. كيف أمكنهم من دون ذلك شراء منزل بعد عام فقط من انتقالهم لإسطنبول؟ بالطبع لا، حاولت إقناع نفسي أنه لا يعرف من أكون. كل ما أردته من الوغد أن يشتري أيًّا ما جاء ليشتريه ويغرب عن وجهي. ذهب لأحد المساعدين وقال: *زن لي بعضًا من القماش. كم لديك من الياردات من هذا اللون؟ سآخذ كل ما لديك*. حمّل المساعدون البضاعة على شاحنته، وجلس قبالتي. مرة أخرى فكرت أن أطعنه بالسكين، أو على الأقل أبصق في وجهه. لكن هل يمكنك فعل شيء كهذا؟ لا يمكنك، لأن هناك زبائن آخرين في المحل. حتى إن أحد المساعدين طلب لنا بعض الشاي. هذا طبعي عندما يشتري زبون كمية كبيرة. جاء الشاي. جلسنا هناك ننظر لبعضنا، ما الذي يمكنني قوله؟ أرفض الجلوس مع الرجل الذي نال من زوجتي كما لو كان قوادها؟ بالطبع لا*.

تضاعف شعوره بالأمل حين وصل لهذه النقطة، وبكى.. *بينما كان يعد المال نظر رأسًا في عينيّ. وأخذت المال من الرجل الذي اغتصب زوجتي. وضعته في الدرج اللعين بيدي تلك. أنت أيتها العاهرة، السبب في أنني أبدو كقواد لا مبالٍ!*.

مسح رمزي دموعه ثم أطبق يده في قبضة بعد أن ابتلع بقية كأسه وقال: *أتعرفين ماذا؟ لقد سأل عنك. قال: *أين هذه المرأة الشابة التي كانت تعمل معنا؟ كان اسمها ليلا. سمعت أنكما تزوجتما. تهانئي لكما*. ثم غمز لي وقال: *قل لها إنني أرسل لها التحية**. وانهمرت الدموع على خديه. لم أطفر ولا دمعة واحدة. عندما رأيت أنه يقترب من قدمي، أغلقت عينيّ، معتقدة أن اللحظة قد حانت، أنه سيقتلني. سمعته يخطو بضع خطوات بعيدًا، لذا فتحت عيني. عندها بالضبط دخلت آيسي غرفة المعيشة. ركع رمزي على ركبتيه أمام آيسي وقفزت أنا ظنًّا مني أنه سيضربها. بدلًا من ذلك، لف ذراعيه حول رقبتها وانفجر في البكاء ثانية. وقبلها على خديها مخمورًا. كنت مصدومة، وكانت آيسي مصدومة. مسح على شعرها وعانقها مرة أخرى. وقال باكيًا: *لقد وهبت حياتي لك*. كان وجه آيسي باهتًا. وقفت هناك متصلبة بينما تشمم كتفيها. أعرف أن رمزي أرادها أن تعانقه هي الأخرى، تمامًا مثلما يحدث في الأفلام، *أوه، أبي، أنت الأفضل!* ناظرًا في عينيها سأل بلطف: *هل تحبين ذلك؟ أن أهبك عمري؟* ظهرت ابتسامة على شفتيها بتردد. وقالت بصوت بارد كالثلج: *أحب ذلك كثيرًا جدًّا*. ثم استدارت عائدة إلى حجرتها.

***

لم يضرب رمزي ابنته في تلك الليلة. أغمي عليه في مقعده باكيًا، وتكوم على مقعده إلى كرة. هل كان مفترضًا أن أشفق عليه؟

فهمت الأمر على أنه كان مريضًا بكونه متزوجًا بي أيضًا. هو لن يطلق سراحي، لكني تساءلت ما الذي سيقوله إذا ما طلبت منه الطلاق. بهذه الطريقة لن أكون مثل زوجة هربت من زوجها... بدا الأمر ممكنًا بعد كل هذا البكاء. كان سعيدًا بالزواج من امرأة صغيرة السن مثلي، لكنه لم يحتمل الأمر في النهاية. هايري آبي... أخبر زوجي في ذلك اليوم أنني كنت فتاة حلوة.

أنت تعرف تلك النساء الشابات اللاتي يحلمن بالزواج، حسنًا، اللعنة عليهن وعلى عقولهن الضئيلة.

حُلمي أن أتطلق. ولو كان رمزي ليطلب حضانة البنات أثناء نظر قضية الطلاق، ليس لأنه أحبهن أو يرى أنه يمكنه رعايتهن لكن بهدف احتقاري، و ستمنحهن المحكمة له. أعني ماذا عن المولودة فهي لا تزال ترضع، ولا بد من توفير الأمر لها. رأيت ذلك على شاشة التلفزيون. يسألون الأطفال: *أين تريد أن تعيش مع أمك أم مع أبيك؟* في تلك الليلة رأيت كيف أشاحت آيسي بوجهها واستدارت لتبتعد، تاركة أباها يبكي راكعًا على ركبتيه. بالنسبة لها، فقد حملت له ضغينة لعينة. ولسوف تقول: *أريد أن أعيش مع أمي*. عندما نقدم أوراق دعوى الطلاق، سنقيمها على أرضية *خلاف لا يمكن إصلاحه*. أنا على يقين أن المحاكم لم تر حالة *لا يمكن إصلاحها* مثل حالتنا. لن أوكل محاميًا؛ لا حاجة للإنفاق على ذلك. أنا لا أملك المال على أي حال. رغم ذلك، أنا لن أطلب من رمزي نفقة طفل لأنني إن فعلت فسيستخدم ذلك ضدنا؛ لذا دعه يحتفظ بماله، لكني أعرف أنهم سيسألون: *إذًا كيف ستقومين برعاية أطفالك؟* تلك هي النقطة الحاسمة. أي دخل أملكه؟ وأي عنوان سأعطيه للمحكمة؟ هل سأقفز عائدة إلى عرين الأسد وأنتقل للعيش مع عائلتي ثانية؟ لا، كان ذلك مستحيلًا. أعرف أنهم لن يقبلوا بعودتي. كان زواجي بالنسبة لهم رباطًا مقدسًا حتى الموت. عليّ أن أجد مكانًا بحيث لا يتمكن رمزي من إيجادي وأتخلص منه مرة وإلى الأبد. ملجأ النساء؟ كان ذلك مستحيلًا. رأيت في الأخبار أن ملجأ النساء وضع إعلانًا في الجرائد باحثًا عن شركة لإدارة الكافتيريا الخاصة بالملجأ، حتى إنهم كتبوا عنوان الملجأ في الإعلان. ماذا لو ذهبت للملجأ وتسرَّب عنوانه؟ سيدق رمزي باب الملجأ في غمضة عين.

أعرف أنني إذا حزت قليلًا من المال، ستكون باقي المسألة سهلة. لو أمكنني الذهاب لأبي لأقول: *بفضلي، أنت تملك محلك الخاص واشتريت منزلًا، لذا فأقل ما يمكنك عمله أن تدفع لي إيجار مكان صغير ليأويني*. لكني كنت أعرف أنه كان سيرد: *ابلعي كرامتك وعيشي حياتك مع زوجك*. فأقول له: *لا أستطيع. رمزي ينوي تطليقي، لذا إما أن تعطيني المال لأتمكن من تأجير مكان لي، أو أنني سأجد سبيلًا آخر للعيش، سبيلًا أعلم أنه لن يرضيك على الإطلاق. أنا أكسب القليل من المال بالفعل. لكن أنت تعرف ما هو الأفضل للجميع*. سيخرج أبي حزمة من المال من محفظته ويناولني إياها، ثم سأبدأ العمل في مصنع ملابس آخر. أنتظر أي عمل؟ من سيعتني بالبنات؟ سمعت عن محلات تدفع المال للزخرفة بالخرز والتطريز على القماش، يمكنني القيام بمثل هذا العمل في البيت. وإذا عملت ليل نهار، أظن أنني يمكن أن أتدبر أموري. لكن ماذا إذا طلب القاضي دليلًا على أنني أكسب ما يكفي من مال؟ حتى عندما كنت في الورشة لم يعطونا إيصالًا بالمرتب. سأقول: *سيدي القاضي، هل تظن أن هذا النوع من العمل مثل العمل في وظيفة حكومية؟ لا توجد لدينا إيصالات سداد، ولا تأمين اجتماعي. هم يعطونك هذا فقط في المصانع الكبرى. لكن هل تعتقد حقًّا أنني سأترك أطفالي يجوعون؟ أنا أمهم*. حسنًا، هكذا أقنعت القاضي، والباقي على الله. أولًا عليّ أن أهرب من شقة رمزي مرة واحدة وللأبد وبعدها سأجد طريقة لسداد الفواتير.

أعدت على نفسي مرارًا الكلام الذي خططت قوله لرمزي لإقناعه بأن يطلقني حتى الصباح، مستخدمة كل الحوارات التي أمكنني تذكرها من مسلسلات التلفزيون التي شاهدتها من قبل.

عندما استيقظ رمزي، كان يريد بعضًا من الشاي والإفطار ولا بد أن يكونا جاهزين. لم يكن هناك واجب عليّ القيام به ولم أفعل حتى يمكننا الانفصال مثل الناس المتحضرين. أعددت إفطارًا من النوعية التي يتناولها الأغنياء كما رأيتهم على شاشة التلفزيون، مائدة كاملة. أنا لا أحصي الجبن،

أو الزيتون، أو المربى لأنها بأسعار مثالية. أعددت بعض الحلوى، وفلفلًا مشويًّا، وحمَّرت بطاطس، وسلقت السوسيس، وقطعت خيارًا وطماطم، وجهزت بعض البيض، وغلفت الطعام بالفلفل الأحمر مع جبن جوز مهروس. ومن أجل تلك اللمسة الإضافية الخاصة وضعت أدوات مائدة، مثل التي رأيتها على شاشة التلفزيون. تناولنا الإفطار معًا لم يضف شيئًا لإبقائنا معًا كعائلة، ظننت أن الأمر قد يفيد في عملية انفصالنا. عندما استيقظت آيسي، أعطيتها كوب لبن وبسكويت وأرسلتها لحجرتها: *عديني ألا تغادري فراشك، أوكي؟ أنا وأبوك لدينا ما نتحدث بشأنه. سأعمل على خروجنا من هذا المكان*. تراقصت مبتعدة على الفور وأغلقت باب حجرتها خلفها. استيقظ رمزي وجلس إلى المائدة. غمغم: *ما هذا؟ هل سيأتينا أحد ما أو شيء من هذا القبيل؟*.
قلت: *لا، كله لك*. الوغد لم يقل حتى كلمة شكر. عندها قررت أن أضيف هذا لدفاعي: *سيدي القاضي، زوجي ليس لديه أدنى شعور بالامتنان لي*.
نظر رمزي للأطباق الفارغة أمامه: *ما هذه الأطباق بحق الجحيم؟ ارفعيهم من فوق المائدة اللعينة*. فكرت: *سيدي القاضي زوجي لا يفهمني أبدًا*.
بينما قمت برفع الأطباق بدأ يتشمم البيض المحمر ماسحًا صفاره بكسرة خبز. عندها بدأت خطبتي: *رمزي، أعرف أنك لست سعيدًا معي*. رماني بنظرة متحيرة. واصلت: *يمكنني أن أخبرك أنني لست المرأة التي كنت تبحث عنها في الزواج. ربما يشعرك كونك متزوجًا بأنك تكاد تختنق. الأمر مثلما أن المغامرة قد وصلت نهايتها*. عضّ على شفتيه قائلًا: *عن أي مغامرة لعينة تتحدثين؟*.
كنت أعرف أن ما قلته سخيف، لكن كلما تكلم الناس عن الطلاق في مسلسلات التلفزيون فذلك ما يقولونه. *ما أقصده يا رمزي، هو أن وجودي هنا ربما يمنعك من العودة إلى حياتك الأولى. ربما لو لم أكن موجودة حولك، ستكون قادرًا على أن تجد أحدًا ما يمكنه أن يجعلك سعيدًا بحق. لم يفت الأوان يا رمزي. ألا ترى ذلك؟ نحن نؤذي بعضنا بعضًا، ولا يساعد أحدنا الآخر. لماذا يتزوج الناس ويبدؤون تأسيس عائلة؟ حتى يكونوا سعداء. رمزي، أنت أيضًا تستحق أن تكون سعيدًا. أنت حقًّا تستحق. لذلك لِمَ لا تطلقني حتى يمكنك أن تحصل على ما تستحقه في الحياة؟*. أرجح يديه في الهواء وكانت هناك صفعة على وجهي، ووجدت نفسي فجأة مقلوبة على وجهي فوق الأرضية.
بنيت أحلامي في الطلاق على أساس خلافات لا يمكن إصلاحها، ولا يمكن أن يعاد إصلاحها بحال مع الواقع الصعب لألواح خشب الأرضية تضغط على وجهي.

***

بدأت آيسي الذهاب إلى المدرسة. شعرت أنني بشكل ما قد تحررت، لأنني يجب أن أصحبها للمدرسة ثم أعيدها من هناك، ما يعني أن أخرج وأرى شيئًا من العالم حولي. بطبيعة الحال، لم يكن رمزي ليأخذ استراحة من العمل ليذهب بها إلى المدرسة. كل الآباء قالوا الشيء ذاته: *حسنًا، بابا يعمل كثيرًا كما تعلمين*.
في أول يوم لها بالمدرسة، بدأ بعض الأطفال في البكاء: *أنا لا أريد أن أبقى هنا دون أمي!* لذلك على مدى الشهر الأول يترك المدرس الأمهات متحلقات حول المدرسة طوال اليوم. سجدت لله لأرى آيسي تبكي وتطلب بقائي معها هي الأخرى، لكنها انسحبت إلى الصف الأول من الطاولات في الفصل وجلست. لم يكن متاحًا لها البقاء في المنزل بأكثر من هذا، وأنا لا ألومها. كان التواجد في المدرسة أفضل كثيرًا من التواجد في المنزل. على الأقل أمكنها الاسترخاء قليلًا هناك.
في نظر الآباء والمدرسين لم أكن، من قريب أو بعيد، ليلا التي عرفها جيراني. كنت أمًّا لابنتين

أرادت فقط الأفضل لأطفالها، واختارت أن تكون ربة منزل حتى يمكنها رعاية أطفالها. في النهاية، فقد عمل الأب كثيرًا.
لم يكن مسموحًا لي بالخروج سوى للذهاب بالبنات إلى المدرسة، وإلى الطبيب حين يمرضن. لذلك بطريقة ما بدأت اتباع أوامر الحديث النبوي الذي يقول: *اطلبوا العلم ولو في الصين*. في كل مرة ذهبت فيها إلى المدرسة بقيت هناك أطول وقت ممكن، كنت أبقى حتى نهاية قسم الولاء في الطابور الصباحي، وكلما كان هناك احتفال في المدرسة، يمكنك التأكد أنني كنت هناك، احمل ابنتي الرضيعة على ذراعي. أحفظ القسم عن ظهر قلب، وخطبة أتاتورك للشباب، والنشيد الوطني في الاحتفال العاشر للثورة، وأغاني أتاتورك المفضلة. كانت الطفلة الرضيعة تصفق وتومئ برأسها على وقع الموسيقى عندما يبدأ التلاميذ في الغناء. آه، جيل جديد من الشباب!
كانت آيسي مجتهدة في الدراسة. لا، ليس ذلك حقيقيًّا تمامًا. كنت أشعر بالملل في البيت، لذا كنت أساعدها في أداء واجباتها المدرسية حتى المساء. كانت الأولى في فصلها الذي تعلمت فيه كيف تقرأ، ما دفع الآباء الآخرين للجنون أن يروها تتسكع وهي مرتدية ذلك الشريط الأحمر معلقًا بدبوس فوق قميصها، مكافأة على تفوقها. شعرت وكأنهم يقولون: *انظر، ليس فقط أبوها يجد في عمله، هي أيضًا تفعل!* كان خطها منمقًا، مثل سلاسل من اللؤلؤ. عندما كان الأطفال الآخرون لا يزالون يدرسون، *انظروا إلى علي قد أمسك بالكرة*، علي في كتاب آيسي كان يلعب في الاتحاد الأوروبي، وعندما انتقل الآخرون إلى الفقرة، *انظروا آيسيل تشرب اللبن*، كانت آيسيل الخاصة بآيسي تصنع الزبادي! في وقت قصير تمامًا صارت آيسي زعيمة الفصل. دبس المدرسون رسوماتها على السبورة، وكانت تُختار دائمًا، في المناسبات الخاصة، لإلقاء الشعر. في المنزل، كنت أقوم بتحفيظها الأشعار وأقف فوق الكرسي مثلما كانت تقف أمام زملائها بالفصل:

رأيت الأمر، رأيت الأمر! رأيت الأمر كله!
توقف عن الصراخ وأخبرني، ما الذي رأيته؟
رأيت شمسًا باردة
النيران تشتعل في الموقد
الجبال دائمًا بيضاء تمامًا
في البيت إنه الصيف
لكن في الخارج إنه الشتاء
أنا أحب بيتنا
أكثر من كل الأماكن الأخرى!
لم يتوافق المنهج في الكتب مع حياتنا المنزلية، ولوضعها في صورة مخففة.
إذا أردت أن تكون صحيحًا
إذا أردت أن تكون قويًّا
ابتعد عن شرب الخمر
لأنه سام مثل الزنك.
إذا كنت تنوي الشراب، فتمسك باللبن
أو عصير البرتقال أو الرمان
الأنقى بين المشروبات النقية
لكن ليس المشروبات الروحية، ستقتلك بالتأكيد.
عائلتك تنتظرك
كلهم منتظرون في المنزل
لذا لا ترمي بكل هذا بعيدًا
مثل مخمور أصبح في ضلال.

الحمد لله لم تلتحق آيسي أبدًا بنادي الاعتدال في مدرستها، من يدري أي نوع من المشاكل كانت لتثيرها.
أنا أتكلم عن كل الزهور في العالم
اجلبها هنا، اجلبها كلها لي
اجلب تلاميذي هنا، اجلبهم كلهم لي.
بينما كنت أقوم بتوصيل آيسي للمدرسة، لم أستطع التوافق مع شعرها أكثر. لاحظت مدرستها أنني كنت أتابع دراستها عن قرب، وطلبت مني أن أنضم لاتحاد الآباء. بالطبع لم أستطع التجرؤ بالقول: *انظري يا امرأة، هل جننت؟ أنا مشغولة بما يكفي محاولة الحصول على الطلاق من زوجي، بينما أحافظ على شيء من مظهر الوحدة العائلية، والآن هذا؟*. بدلًا من ذلك استطعت التهرب بالقول: *رعاية الطفلة الرضيعة تستهلك كل وقتي*.

***

تباهت بعض الأمهات بأن أطفالهن كانوا الأكثر اجتهادًا في الفصل، رغم أنهم بالكاد استطاعوا أن يرسموا أبسط الأشكال. كما لو كنت أحاول دفع النقوط إلى البيت، صارت تلك الأمهات صديقات لآباء التلاميذ الذين كانوا في عقولهن، من المستوى الثاني. كن يحتشدن في فناء المدرسة، وفي الصالات، مبتهجات حول إلى أي مدى كان أبناؤهن أذكياء ومجتهدين في دراستهم. وكن يسألن كل يوم مدرس الفصل: *كيف يبلي طفلي في الفصل؟*.. *حقًّا؟ لكنه يجتهد كثيرًا*. لكن عندما صارت آيسي النجمة اللامعة في فصلها، بالطبع تغيرت الأمور، كن يأتين إليّ أحيانًا ويحاولن البدء في حديث معي، وأخبرنني أن أمهات التلاميذ المجتهدين يجتمعن معًا بين الحين والآخر في منازلهن ليتبادلن الحُلي الذهبية ويتحدثن معًا. ذلك يبدو أنه كان أسلوبهن في إحكام صداقتهن، ودعوني لأنضم لهن. حتى لو أردت ذلك، لم يكن هناك سبيل كي أفعلها. لم يكن رمزي ليسمح لي أبدًا. كان بخيلًا كلما قمن بزيارتي، باستثناء أن يصل الأمر للرغبة في ترطيب صفارته *ممارسة حقه الشرعي معي*. لذا عرفت أنه لم يكن أبدًا ليمنحني المال لشراء أي ذهب. الآن، دعنا نفترض أنني استطعت أن أصبح فردًا في جماعتهن وجاء دوري لاستقبالهن في بيتنا. أستغفر الله، ماذا لو قرر رمزي العودة مبكرًا في ذلك اليوم وبدأ شجارًا معي، كما يفعل دائمًا، جاعلًا مني أنا وآيسي مادة للسخرية في نظر الأمهات الأخريات. عندها ستكون أول مادة على أجندتهن، في اجتماعهن التالي، النميمة حول حياتنا المنزلية. فقلت: *سيكون الأمر صعبًا عليّ بسبب طفلتي الرضيعة*.

***

كان موعد إرضاع الطفلة بعد إيصال آيسي للمدرسة، وذهبنا ذات يوم للمستشفى. بمجرد دخولنا من البوابة، من رأيت؟ تلك الممرضة المشتعلة بالنشاط. بدا بطنها مثل حامل على وشك الولادة. قلت: *مبروك الحمل*. نظرت نظرة خاطفة على الرضيعة على ذراعي وهتفت: *انظري إليها! لقد كبرت كثيرًا!* ابتكرت مزحة قائلة: *الفضل كله لك*. تغض وجهها في حيرة. لم أكن في حاجة لإخفاء أي شيء عنها. في نهاية المطاف كانت هي من ضمدت جراحي. قلت: *عندما جاؤوا بي إلى هنا، أخبر الأطباء زوجي أنني كنت حاملًا.. لكنني كنت أخطط لإجراء عملية إجهاض بأي سبيل*. كنت على يقين أنها تذكرت أول مرة رأتني فيها، والحالة التي كنت عليها. قالت: *إذا كنت لا تريدين أي أطفال أخرى، عليك بتركيب لولب، ليس مكلفًا كثيرًا*.
قلت: *لكن، إذا لاحظ زوجي الأمر سيقتلني*.

نظرت لي برهة، ثم قالت: *كيف سيلاحظ؟ اللولب يكون داخل الرحم*.
حسنًا في هذه الحالة.. لكن لا يمكنني أن أقوم بالأمر الآن، ليس في وجود الطفلة. ربما في وقت آخر.
يمكنني أن أعتني بها حتى ينهوا الأمر معك.
كانت ممرضتي شعلة النشاط ملاكًا. هتفت: *أتعرفين هناك شعر كتب عنك* رفعت حاجبيها في دهشة. *أوه ماذا تقصدين؟* بدأت في إلقاء القصيدة:

في آخر اليوم
عندما يذهب الجميع
تظل الممرضات يكدحن
مع تثاؤب ناري
بلمستهن الناعمة
كلماتهن دائمًا حلوة تمامًا
يجعلونك مُعافَى مرة أخرى
ليس عملًا سهلًا أبدًا
هن يساعدن الأطباء
ويرفعن روحك المعنوية
لكنهن أيضًا يمكن أن يسقطن ضحية
لأكثر المخاوف ظلامًا.

ضحكت ضحكة مكتومة، وضحكنا معًا طول المسافة حتى عنبر النساء. ربت على بطنها وسألتها: *هل سيكون ولدًا أم بنتًا؟* أجابت: *فتاة، لقد استجاب الله لصلواتي*. ليست كل واحدة لها زوج متفهم مثل زوجها. وبينما كنا نعبر الردهة للباب، استدارت لي وقالت: *أتعرفين، ظننت أنك ربما هربت مع مظلوم في نهاية المطاف*. لم يكن لدي رغبة لأقول لها: *مظلوم قُدِّمَ على مائدة العشاء!* بداية، هي قصة طويلة، وثانيًا كانت هي الشخص الوحيد الذي فكر فعليًّا بأن لدي شخصًا ما في حياتي يمكنني اللجوء إليه. لم أرغب في أن أخذلها بقول الحقيقة. قلت: *لدي أطفالي هنا، عليّ العناية بهم*.
بعد أن ركبوا لي اللولب قال الطبيب: *عليك الانتظار لعشرة أيام قبل الدخول في ممارسة جنسية مرة أخرى*. قلت مصعوقة: *ماذا؟ كيف يمكنك قول ذلك بعد أن وضعت الشيء اللعين بداخلي؟!*.
ما إن غادرت المستشفى، شعرت بعقلي مثقلًا بأفكار إشكالية: كيف يمكنني أن أمنع رمزي عني لعشرة أيام كاملة؟ لعنت نفسي لأني استمعت لنصيحة الممرضة. زوجي لا يمت بصلة لزوجها ولا يمكن مقارنته به. هل يمكنني أن أقول لرمزي: *فعلت هذا دون أن أسألك مسبقًا، لكن كل شيء على حاله، فقط لا علاقة لعشرة أيام، أوكي بعلي العزيز؟*. الأمر ليس بسيطًا مثلما كنت حاملًا في أرسلان، وتماشى معي في كل ما قلته.
ماذا لو قلت له: *ليس الآن، لدي صداع؟* لا، هذا ينجح فقط على شاشة التلفزيون. ماذا عن: *لدي العادة الشهرية؟* ذلك لم يكن يعنيه في شيء. وعندما عاد إلى البيت في تلك الليلة، ظللت أملأ له الكأس وأعيد ملأها على أمل أن يغشى عليه، لكنه لم يحدث. صببت لنفسي كأسًا، وجلست أمامه، أفكر في أن ذلك ربما يجعله يشرب أسرع. شعرت أنني مثل واحدة من فتيات الأفلام اللائي يدعين أنهن يشربن لجعل الرجال يسكرون. رشفة تلو أخرى، ونخبًا تلو آخر! انتهى بي الأمر ابتلعت عدة كؤوس بنفسي.

عندما استيقظت، شعرت بدوار في رأسي. حاولت الجلوس لكن معدتي بدأت تثقل، فرقدت ثانية. حاولت تذكر ما حدث في الليلة السابقة مغلقة عينيّ، وكل ما حصلت عليه كان صورًا ممزقة، مثل قطع في أحجيات آيسي، وحاولت تجميعها معًا دون جدوى. *اللعنة عليكم! فلتذهبوا جميعًا للجحيم!* قلت ذلك لرمزي عند مرحلة بعينها، لكن قبل ذلك قال هو.. معدتي مقلوبة مرة أخرى وبالكاد وصلت الحمام في اللحظة المناسبة. غسلت وجهي. وأفقت. ما الذي جعلني أقول شيئًا كهذا؟ لعله كان يشكو من أبنائه. تذكرت ذلك. قال إنهم بمثابة نقمة عليه. *الله يعلم ماذا فعلت بزوجتك الأولى، لكن الآن لا يمكنهم حتى أن يكلفوا أنفسهم عناء أن يقولوا لك أن تغرب عن وجهها. وما فعله هايري آبي لي.. هل فعلت زوجتك شيئًا واحدًا لعينًا وكان خطأ؟ بالتأكيد، فكلنا عاهرات، وأنتم قديسون أولاد عاهرة، وأنت مدمن خمر لعين!*.

نعم قلت تلك الأشياء لرمزي. كانت ذراعي لونها أزرق وأسود، لكني لم أتذكر أي شيء عن ضربه لي، لكني تذكرته وهو يحاول أن يجرني للسرير. تجردت من سروالي ورأيت أثر الدماء. هل فعلها ذلك الوغد؟.. فعلها بالتأكيد. لكن هل أخبرته عن اللولب؟ صليت ألا أكون فعلت. ها هو لديك يا ليلا هانم؛ ابتعدي عن الشراب لأنه سام مثل الزنك!

لا معاشرة لمدة عشرة أيام. أولئك المغفلون! لم يتوقف النزيف. تساءلت إذا كان اللولب انزلق بعيدًا داخل رحمي. ذهبت لحجرة الجلوس، كانت آيسي واقفة هناك بزيها المدرسي منتظرة إياي، وتساءلت إن كانت سمعتنا نتشاجر بالأمس. بحثت في وجهها عن مفاتيح تدل على مشاعرها، لكن كالعادة كانت ملامحها صماء. قالت: *ماما، لقد تأخرنا على المدرسة*. أجبتها: *آيسي، عليّ الذهاب إلى المستشفى*. كان هذا أول يوم تغيب فيه عن المدرسة بسببي.

اتصلت بأمي لأطلب منها رعاية الأطفال حتى أستطيع الذهاب إلى المستشفى. سيقوم الطبيب بنزع اللولب. لا أمي، هذه الأشياء المتحضرة لم تخلق لأمثالنا.

بينما كنت أسير نحو بوابة المستشفى، لاحظت أن امرأة تنظر إليّ كما لو كانت تحاول تذكر أين رأتني من قبل. بدت مألوفة لي أيضًا. هي في الأربعينيات من عمرها، نحيفة وذات أرداف بارزة بعض الشيء. هل كانت إحدى الأمهات من المدرسة؟ ما إن مررت إلى جوارها مفكرة *من يبالي بمن كانت* حتى نادت عليّ: *هاك، عرفت أنني أعرفك من مكان ما*. أنا ما زلت لا أذكر أين رأيتها من قبل. قالت: *التقينا ذات مرة هنا في المستشفى*.

سألتها: *هل أنت ممرضة هنا؟*.

لا، أنا مجرد زائرة.

عندما رأيت الكيس البلاستيك الذي تحمله تذكرت، كانت أولكر. المرأة التي جاءت لحجرتي آخر مرة كنت فيها في المستشفى. بدأت في حياكة سترة في ذلك اليوم. وبدت أفضل حالًا الآن. كان شعرها مصففًا ومثبتًا بمشبك كبير، وعلى كتفيها شال مطرز باللون الفضي، وقد وضعت أحمر شفاه لامعًا بدا ممسوحًا بسبب شقوق شفتيها. قالت: *المرة الأخيرة التي رأيتك فيها كنت في حالة سيئة جدًّا. ما شاء الله أنت تبدين أفضل كثيرًا من تلك الأيام. دعينا نتناول بعض الشاي معًا*. كان هناك شيء غريب فيها. ليست مجنونة بالضبط، لكنّ عينيها مجنونة قليلًا. قلت: *لا يجب عليّ أن أتأخر في العودة إلى البيت*. قالت: *ما أهمية ذلك، إذا كان زوجك سيضربك، فهو سيفعلها سواء ذهبت رأسًا إلى البيت أم لم تفعلي*.

سألتها: *كيف، هل تعرفين شيئًا عن..*. تبين أنها سمعت الممرضات يتحدثن عني عندما أحضرني

رمزي هنا. هكذا، أيتها الممرضة شعلة النشاط ذات الحياة المثالية، هذه طريقتك لتمضية الوقت، بالنميمة حول أمثالي من الناس.
جلسنا، أولكر وأنا، إلى طاولة في حديقة المستشفى. سألت: *شاي؟!* *بالطبع*. وقفت على قدميها منتظرة. في البداية لم أفهم، لكن بعدها أدركت الأمر. وضعت يدي في جيبي وناولتها ليرتين. بعدها بدقائق عادت بكوبين من الشاي. جلست قبالتي وأخرجت سترة الأطفال التي كانت تحيكها من كيسها البلاستيك. قالت: *الأشياء التي أصنعها لا تبلى أبدًا، ارتديها لعشر سنوات، واغسليها كل يوم، وستظل جيدة كالجديدة. هل لديك أي أطفال؟*.
اثنتان. إحداهن بدأت المدرسة، والأخرى لا تزال رضيعة.
قالت: *الحلوات، لم يكن عليك أن تأتي بالثانية*.
لم أخبر أحدًا حولي بأن زوجي يضربني. لكن أولكر أصابت كبد الحقيقة، مخبرة إياي كيف أنها كانت تُضرب من زوجها وأنها تذكر الأمر كما لو أنه حدث بالأمس: *زوجي يضربني أيضًا. تجاهلت الأمر لعشرين عامًا. عندما يأتي الأطفال ويدخلون الصورة، ما الذي يمكنك فعله غير ذلك؟ أردت العودة لعائلتي لكنهم لم يرغبوا في أي شيء له علاقة بي. وقتها كان ابني قطعة لحم صغيرة. إلى أين يمكنني الذهاب؟ كانت الأمور أفضل عندما كان ابني صغيرًا، وعندما كبر، بدأ في الشجار مع أبيه كلما رآه يضربني. كان مرتبطًا عاطفيًّا بي حقًّا. دفعني هذا للجنون لأني كنت مرعوبة أنه يومًا ما سيطعن أباه حتى الموت وينتهي به الأمر قاتلًا، كل ذلك بسببي. هدأ أبوه، في السنوات القليلة الماضية، بعض الشيء. بدافع الخوف، أترين، هو لن يضربني عندما يكون ابني موجودًا. لكن بعدها كان على ابني أداء الخدمة العسكرية، فأرسلناه لأدائها، وعندما عاد زوجي إلى البيت بدأ في تكسير الزجاج بعنف، ثم بدأ في ضربي. على مدى عامين كاملين لم يكن قادرًا على وضع إصبع عليّ. أفرغ كبت هذين العامين عليّ في ليلة واحدة. أتذكر أنني نظرت حولي، مفكرة أنه طالما ذهب ابني، فلا يوجد ما يبقيني في البيت. فكرت في ذلك لأول مرة خلال عشرين عامًا. لذا خرجت من الباب، وعندما سرت في الخارج فكرت في أنني صرت حرة أخيرًا!*.
دون طفل معلق بذيل جوبتي، يمكنني الذهاب لأي مكان أريد. لكن أين أريد أن أذهب؟ لم يكن لدي أي مال، ولم يكن جيراني ليستضيفوني، ومات أبواي. وحتى لو كانوا أحياء، لم يكونوا ليسمحوا لي بالعودة إليهم. حتى ذلك الحين كانت المرة الوحيدة التي خرجت فيها، للمتجر عند ناصية الشارع، أو عندما ينقلونني للمستشفى بعد أن يضربني زوجي بعنف. ثم وانتني فكرة، سأذهب للمستشفى، وأبقى في الليل في غرفة انتظار الطوارئ.
قلت: *فكرت في ذلك أنا أيضًا. ذات ليلة هربت، مفكرة أنني أستطيع البقاء بالمستشفى طوال الليل. لكن لم تنجح الخطة في نهاية المطاف*. قالت أولكر: *عزيزتي، الأمر ليس سهلًا. ليومين كاملين جلست على تلك المقاعد الصلبة حتى آلمتني أردافي. وكنت جائعة للغاية... حتى النظر إلى الخط الوريدي في أذرع المرضى كان يسيل لعابي، كان الأمر بهذا السوء*.
تناولت رشفة من الشاي وقالت: *دعيني أقول لك شيئًا، لو لم يعانِ الناس من الجوع لكنا لا نزال في العصر الحجري. كل الاكتشافات الكبرى حدثت بسبب الجوع. أدرك الناس كيف يخبزون ويصنعون الجبن لأنهم كانوا جائعين. أن تكون معدتك ممتلئة يجعل الناس كسالى. إذا كان لديك الكثير من الطعام، هل كنت ستفكرين؟ ما هذا النبات النامي هنا؟ دعني أنزع البذور منه لأرى إن كانت مفيدة على أي نحو. دعني أطحنها، وأعد بعض الدقيق. الدقيق، هذا هو. الدقيق الجاف. ثم

سأضع عليه بعض الماء، وربما بعض العجين، وأفرده بقطعة من الخشب، وأخبزه. الخبز! لن تفكري أبدًا في ذلك لو كانت معدتك ممتلئة. لن تحركي إصبعًا... لكنني كنت جائعة، ووجدت السبيل للحصول على شيء لآكله في نهاية المطاف*.

إلى متى يمكنني الجلوس في غرفة الطوارئ؟ كنت أقترب من اليأس. قمت عند نقطة بعينها وبدأت أتمشى في الجوار بالمستشفى، مفكرة في أني قد أجد شطيرة من خبز قديمة تم رميها. في بنك الدم رأيت أولئك الناس الذين كانوا يخرجون وبيديهم المقرمشات وعلب صغيرة من عصير الفواكه. أتعرفين، لأن ضغط دمك يهبط عندما تتبرعين بالدم، لذلك يعطونك شيئًا ما خفيفًا لتعودي طبيعية مرة أخرى. مجانًا! وأدركت أنني سأفعلها لأملأ معدتي. دخلت، قلت إنني أريد التبرع بالدم. كان السرير مريحًا، بعد أيام كنت أتلوى فيها على تلك المقاعد الصلبة في غرفة الطوارئ، حتى إنني سقطت في النوم عندما امتلأ الكيس بالدم حتى نهايته. بالطبع منحوني بعض المقرمشات وعلبة عصير فواكه. كنت جائعة جدًّا ولم أبالِ بما يظنونه بي، وطلبت المزيد من المقرمشات والعصير.

جلست إلى طاولة في الحديقة وبمجرد أن فتحت عبوة المقرمشات، سمعت صوت الأذان آتيًا من المسجد. كان مثل رمضان، أتعرفين، كما لو كنت أفطر بعد صيام. كان طعمها جيدًا كلها. شعرت بغبطة أن أضع شيئًا ما في معدتي بعد كل تلك الأيام... أنهت مقدمة الملاءة وعقدت النهايات، وعندما كانت تعمل على الغزل في صف جديد بظهر الإبرة، واصلت حديثها:

*أتعرفين، كلما زاد عدد الناس الذين يجب أن يأكلوا زادت المشاكل لديهم. أنت تشاهدين الأمر في برامج التلفزيون. الناس الأغنياء دائمًا ما يحتاجون إلى زيارة لمحلل نفسي. لماذا؟ لأنهم يخيفون أنفسهم طوال الوقت. عندما لا يضطر الناس للقلق حول الشعور بالجوع يبدؤون في خلق المشاكل لتمضية الوقت. لكن عندما تكونين جائعة، يبقى لديك شيء واحد في ذهنك، ذلك هو معدتك الخاوية. تتعجبين: سأقوم بأي شيء لسد رمقي، هل سأكون قادرة على إيجاد شيء ما لأطعم به أطفالي؟ عندما كنت جالسة في غرفة الطوارئ جائعة حتى الموت، لم أتساءل أبدًا ولو لمرة واحدة إذا ما كان زوجي يبحث عني. كنت فقط أفكر في شيء ما لآكله حتى امتلأ عقلي بالمخاوف. أنا أعرف أنه سيأتي بحثًا عني. وأعرف أن أول مكان سيذهب إليه سيكون المستشفى ومخفر البوليس، لذا لم تكن غرفة الطوارئ المكان المثالي للاختباء فيه. لم أسجل اسمي كمريضة، رغم ذلك، ما زال هناك خطر، وتذكرت أنني أعطيتهم اسمي عندما تبرعت بالدم، لذا إذا ما راجع الأسماء... لكن لِمَ سيراجع الأسماء هنا؟ أول مكان سيذهب إليه هو غرفة الطوارئ. قررت أنني لا أستطيع البقاء هناك أكثر من ذلك.

كنت أعرف أنني يجب أن أجد مكانًا لأنام فهي، وسبيلًا للحصول على طعام. إذا أخبرت الممرضات أنني مريضة، سيقومون بتسجيلي وسيكتشف زوجي مكاني. إذا أخبرتهن أنني لا أملك بطاقة هوية، سيجعلونني أدفع لقاء بقائي، ولم أكن أملك كوروس واحد في جيبي. فكرت فيمن يبقون طوال الليل في المستشفى... الأطباء والممرضات والمساعدين في ورديات الليل. علمت أنني لن أتمكن من القيام بدور طبيب أو ممرضة، لكن مساعدة؟ بدا الأمر ممكنًا. تساءلت إذا كان الأمر يستلزم دخول امتحان ما. وحيث إنه مستشفى حكومي، فكرت أنهم سيطلبون مني إثباتًا بأن سجلي الجنائي نظيف. لكني كنت أعرف أن زوجي لا بد طلب الشرطة، ومحتمل أنهم كانوا يبحثون عني، لذا إذا ما ذهبت إلى المحكمة لطلب سجلي سيعتقلونني على الفور. لذلك لم يعد العمل

كمساعدة مطروحًا. ثم أدركت أن الناس الذين يزورون المرضى أحيانًا ما يبقون في الليل. لا يوجد ما هو أفضل من ذلك، فهم لا يقومون بأي عمل، عكس الأطباء والممرضات والمساعدين. يقوم الزوار بين الحين والآخر بنفض وسائد المريض وقد يجلبون كوبًا من الماء له، ذلك كل ما في الأمر. ثم بعد ذلك يذهبون لينامو على سرير يطوى في حجرة المريض. وكلما جلب المساعدون الطعام للمريض، يجلبون صينية أخرى للمرافق. وإذا كان المريض مزمنًا، يمكن للمرافق الزائر أن يستحم في المستشفى. كان ذلك أفضل مما يوفره أي فندق خمسة نجوم.
استجمعت شجاعتي، وذهبت إلى الردهات المزدحمة في عنبر الباطنة ودخلت واحدة من حجرات المرضى. عندما وجدت مقعدًا شاغرًا هناك جلست عليه. لم يكن الأمر سهلًا في البداية. كنت متأكدة أن طبيبًا سيدخل ويسأل من أنت، وماذا تفعلين هنا؟ ما الذي يمكنني قوله؟ إنني زائرة؟ عندها سيقول: كل الزوار هنا يسجلون، لذلك من أنت؟ كانت معدتي ممتلئة لكني كنت أزداد عطشًا على عطش. في البداية فكرت أن الزوار سيسألونني من كنت، لكنهم كانوا مشغولين للغاية برعاية مرضاهم حتى يتساءلوا عمن يزور مَن. جاء طبيب ليتابع المريض إلى جواري. لكن هكذا هو الأمر، الأطباء يقومون بجولاتهم لكنهم لا يبالون البتة بالزوار، ولم يكونوا ليسألوا *من أنت بالضبط؟*.
كان أحد المساعدين يدور في العنبر مع عربة محملة بصواني الطعام. جلست في المقعد المجاور لمريض كان نائمًا، ودون أن يسألني عن أي شيء ناولني صينية: أرز مع دجاج، وسلاطة، وحلوى. كانت تلك أول وجبة ساخنة أنالها منذ وقت طويل.
يجد الزوار طرقًا لتحويل غرف المستشفى لشيء أشبه بالبيت. ينسجون، ويشاهدون التلفزيون، ويمارسون النميمة، ويجلبون غلاية كهربية ليتمكنوا من عمل الشاي والقهوة. ناولني زائر من السرير المجاور كوبًا من القهوة وقال: *هاكي، هذا سيشعرك بتحسن*. وشعرت بحالة رائعة! عشاء لطيف، وقهوة. لم أتناول مثله من قبل أبدًا، حتى في بيتي.
عنما كان يكتب للمرضى على خروج، ويأخذ مكانهم مرضى جدد –يتغير الزوار، لكن ليس أنا– صرت مثل أحد التجهيزات في العنبر. الآن أنا أغير الحجرات كل بضعة أيام بحيث لا أكون واضحة جدًّا للآخرين. لا أريد أن أجلس هناك فقط من دون عمل. في النهاية أنا أشغل مقعد زائر، لذلك أحاول القيام بشيء طيب بينما أنا هناك، بمساعدة المرضى الذين ليس لديهم أي زوار. أجلب لهم الماء، أطعمهم، أمشي معهم للحمام. بعد فترة بدأت الممرضات في تحذيري، قلن لي: لا يمكنك البقاء هنا. هل تذكرين الممرضة التي كانت لديك؟ كانت تلك أول مرة أقابلها فيها. قالت لي: لا يمكنك الاستمرار في القيام بهذا العمل. قلت: لكني لا أملك خيارًا آخر. إذا غادرت، إما سأموت جوعًا أو سيجدني زوجي ويقتلني. دعيني أبقى فقط. لا يمكننا، سنقع في مشكلة. كيف يمكن أن أسبب لك أي مشكلة؟ أنا فعليًّا أجعل حياتك أسهل. أنا لا أنادي عليك كل خمس دقائق، مثل الزوار الآخرين، وأساعد المرضى حتى يدخلوا لسريرهم ويخرجوا منه عند الحاجة. حلوتي، ستكونين قادرة على الاسترخاء أكثر في وجودي. وبالنسبة لتكلفة طعامي، فهي لا تخرج من جيبك. غمغمن وهمهمن لفترة، لكني أظن أنهن بنهاية اليوم شعرن ببعض الأسى تجاهي وبدأن في تجاهل حقيقة أنني هناك. معظم الممرضات شابات، لذا من السهل إقناعهن، لكن المساعدين قصة أخرى. معهن لا يمكنك أن تجدي طريقة لتقولي: أنتن فتيات جميلات وطيبات. مشكلتهن أنهن لا يريدن أن يشاركهن أحد في البقشيش الذي يحصلن عليه. فأخبرتهن: أنا لست مهتمة على الإطلاق ببقشيشكن.

أنا أقيم هنا، لذا أنا لست ملزمة بدفع إيجار، والحكومة تدفع لي تكلفة التدفئة والطعام، لا أريد أي مال، ما الذي سأفعله به، أدخر لشراء غرفة هنا مثلًا؟ أنا جادة. إذا منحني مريض بقشيشًا سأمرره لكنّ. انظرن للجانب المضيء في المسألة، كما لو أنك تملك أحدًا يعمل من أجلك دون أجر. أنا فقط أقيم مع المرضى الذين ليس لديهم زوار على الإطلاق. أنتن تعرفن مثلي أنهم لا يمنحون البقشيش. إنهم أبناء المرضى العجائز هم الذين يدفعون بقشيشًا، لأنهم يريدونك أن تعتني بذويهم بشكل أفضل. هل أنتن فعليًّا نتظفن المخاط والتقيؤ الذي يتخلف من المرضى الذين لا يملكون بنسًا ليقدموه لكن، أولئك الذين ينهون حياتهم؟ بلا مقابل؟ هن تقبلن الأمر في نهاية المطاف، ولأنهن يخشين من الوقوع في مشكلة، لا أحد منهن يقول لي بصوت مرتفع: أوكي، يمكنك البقاء. هن فقط يتجاهلنني، وهذا ألطف كثيرًا بالنسبة لي. الشيء الجيد في قسم الأورام أن المرضى عادة ما يبقون طويلًا، لذلك لا أقلق حول التنقل في الأدوار كثيرًا. وهناك العديد من المرضى دون عائلة أو أصدقاء... لم أعد أخفي ما أفعله. أسير رأسًا إلى المرضى الذين يبدون وحيدين وأسأل: *هل تريدني أن أكون زائرتك؟* هم يقدرون أن يجدوا شخصًا ما ليرعاهم ويمكن أن يفضفضوا معه عن مكنون قلوبهم وكيف أنهم منبوذون من عائلتهم بمجرد الحاجة إليها. ما الذي يمكن لامرئ أن يرغب فيه غير ذلك؟ ليس جيدًا البقاء وحيدًا في أوقات مثل هذه ولا في أماكن مثل المستشفيات. ذلك هو السبب حلوتي، فالممرضة أولكر العجوز هنا بمثابة شخص ما، من أجل أولئك الذين ليس لديهم أحد*.

لم أستطع تصديق ما أخبرتني به بينما كانت تتكلم. أخبرتني كيف باعت قطع الملابس التي تحيكها أمام عنبر الأمهات لجني القليل من المال. ما يعني أنها من حاكت السترة التي اشتراها رمزي في اليوم الذي لم أنجب له فيه ابنه أرسلان... أصبحت تقيم أودها كصاحبة عمل مستقلة!

قالت: *أنا عائدة للتو من حفل زفاف. ليس سهلًا البقاء في المستشفى طوال الوقت. هذا يثير الكثير جدًّا من الكآبة. عليك أن تخرجي بين الحين والآخر لتنفضي عن كاهلك غبار الأمر. دعيني أقول لك شيئًا: لو لم يكن لدى الناس مشكلات خاصة بهم، لكنا متنا من أسانا الذاتي. دعينا نقول إنك اكتشفت ذات يوم أنك مصابة بالسرطان. هل كنت ستقولين إنني أشعر بتدهور بسيط، لذلك أفكر في الخروج لاستنشاق بعض الهواء النقي، ربما رفع ذلك معنوياتي؟ لكن يكون الأمر سهلًا في وجود شخص ما يمر بأزمة صعبة هو الآخر. مشكلاتنا الخاصة تبرأ أو تتلاشى من خلال التعرف على معاناة الآخرين. تقولين لنفسك، لا أعاني بمثل هذا السوء في نهاية المطاف، وتشعرين بالامتنان بما لديك، ناسية أزماتك الشخصية. عندما تقولين: آه، ياللعار! وتظهرين القدر الكافي من التعاطف، تكون مهمتك قد أنجزت. ثم يمكنك القول: أشعر بالأسى عليها... رغم ذلك، ربما من الأفضل أن أخرج لأتخلص من هذا الشعور؛ مشكلات الآخرين تمنحنا نوعًا من المتعة التي تجعل من الممكن لنا أن ننسى مشكلاتنا. معظم النساء لديهن أطفال، لهذا السبب بالتحديد، حتى يمكنهن نسيان مشكلاتهن الشخصية. المشكلة هي أن الحبل السُّري لا يسقط بعيدًا عندما تضعين مولودًا، وتكتشفين أن لديك أضعاف المشكلات التي كنت تعانين منها قبلها*.

*ذات يوم تم تشخيص مريضة كنت أعتني بها، بأنها مصابة بالسرطان، وانتشر الورم كثيرًا حتى إن الأطباء لم يستطيعوا فعل أي شيء لها. كنت مغتمة حقًّا، لذلك خرجت للنزهة لأبعد عن عقلي التفكير في الأمر. وبالصدفة مررت بقاعة استقبال، وكان الباب مزينًا بالزهور، وأمكنني سماع موسيقى. كانت نساء يرتدين العباءات ورجال يرتدون بدل التاكسيدو يجيئون ويذهبون، كلهم كانوا

يبتسمون... وكان الفَرح مُعديًا. وجدت نفسي مدفوعة للمرور من تلك الأبواب. بمجرد دخولي، بدأت أشعر بالتوتر، مثل اليوم الأول الذي جلست فيه على كرسي زائر في المستشفى، تراودني فكرة أنهم مؤكد يعلمون بأني لم أكن أنتمي للمكان. لكن عائلة العروس ظنوا أنني من أقارب العريس، وعائلة العريس ظنوا أنني من أقارب عائلة العروس. بعد الحلوى والليموناده، لم يكن ممكنًا أن أشعر بما هو أفضل، حتى إنني قمت ورقصت لبعض الوقت. هنأت العريس والعروس، والتقطنا صورة معًا. أمضيت وقتًا رائعًا*.

*هذه الأيام، كلما شعرت بالحزن أو الملل، أذهب إلى قاعة استقبال عبر الشارع وأرقص في حفلات الزفاف هناك. أتعرفين، إنها متعة أكبر أن تذهبي لحفلات زفاف الغرباء. إذا ذهبت إلى حفل قريب لك، يكون لدى الناس دائمًا هذا الكلام بادٍ في عيونهم الذي يقول كلامًا من قبيل، كم من المال ستقوم أولكر بتقديمه كنقوط للعروسة؟ ولن يدعوك لزيارتهم إذا كان زوجك يضربك، بل لن يقدموا لك كسرة خبز لو كنت تتضورين جوعًا، ولن يعطوك سترة لو كنت تشعرين بالصقيع حتى الموت... لكن إذا ما قمت مرة بتقديم بعض المال في حفل زفاف سيهتف لك الجميع *أولكر، أولكر!*.

بالطبع، عندما تذهبين لزفاف غريب، هناك قواعد بعينها عليك اتباعها، على سبيل المثال، عادة ما آخذ حمامًا في المستشفى، ثم أذهب لمحل العطور أعلى الطريق واستخدم بعض عيناتهم للتعطر. وعندما أظهر في حفل الزفاف، أتأكد من جلوسي دائمًا في الخلف. آه! يا لها من أوقات طيبة...

سألتها: *ألم تسمعي أي أخبار من زوجك؟ أقصد، ماذا لو اكتشف مكانك؟ ألست خائفة؟*.

لا أعتقد أنه حتى يذكر أين بحث عني. لكننا سنرى، أفكر في بعض الأشياء. ماذا لو وجدني؟ ما يجعلني مستيقظة أحيانًا طوال الليل، حتى أغفو عند نقطة معينة، ثم أستيقظ بشعور أنني كنت دائمًا هنا في المستشفى، وأنني لم أتزوج أبدًا ولم أعش يومًا في أي مكان آخر غير هذا.

بدأت أولكر في حياكة سترة لطفل، ويدها تعمل على النسيج مثل آلة. العروق الزرقاء على ظهر يديها كانت مثل الظلال الثلاثة داكنة أكثر من تلك السترة. *إنه لون جميل*. انتقلت إلى الصف التالي من العُقد، وأجابت: *هو أزرق زاناكس*.

قلت: *أولكر، لا أستطيع التوقف عن التفكير في البقاء زائرة كما أخبرتني. أحتاج إلى الهرب من بيتي أيضًا، أحتاج إلى الهرب بعيدًا. ربما أمكنني القيام بالشيء نفسه هنا..*. توقفت عن الحياكة فجأة وأطلقت نظرة قاتمة تجاهي وقالت: *انظري، لا يمكننا أن يكون لدينا اثنتان تقومان بنفس الشيء هنا. سيبدؤون في ملاحظة الأمر، وعندها سيكون عليّ المغادرة. كما أننا لسنا في نفس الموقف على الإطلاق. لديك ابنتان تحتاجان لرعايتك، وما زلت ترضعين مولودتك. هل ستقومين برعاية المرضى أم ستهدهدين طفليك ليناما؟*.

شعرت بقطرة من اللبن تتجمد فوق حلمتي، قلت: *عليّ أن أذهب، من المحتمل أن تكون الطفلة الرضيعة جائعة*.

قالت: *أخبريني هل زوجك مدمن هو الآخر على الكحول؟* أومأت لها. قالت: *أعطيه بعض الأنتابيوز*.... *أنتابيوز؟*.

شرحت لي أنها اكتشفت هذا الدواء عندما بدأت الإقامة في المستشفى. هو نوع من الدواء لمساعدة الناس على الإقلاع عن شرب الخمر، يجعلهم يتوقفون عن الرغبة في الشراب. دهشت لوجود مثل

هذا الدواء. ما الذي قاله عمي عن رمزي؟ *هو رجل لائق عندما لا يشرب*. أتساءل عن صحة هذه المقولة. قلت: *أولكر، زوجي دائمًا ما يقول لي: أنا لست مدمنًا على الكحول. أنا أشرب في البيت فقط. لذلك لو حاولت إخباره بأن يتوقف، أو إذا أخبرته أن هناك دواء سيساعده، ستثور ثائرته*.
فتاتي العزيزة، لا تخبريه. فقط ضعي الدواء في حسائه، لكن تأكدي فقط من وضع نصف قرص كل مرة. عندما يختلط الدواء بالكحول، تكون له أعراض جانبية كريهة. بعد لكز إبرة الخياطة في سترة الطفل التي وضعتها في كيسها البلاستيك قالت: *أرأيت، لقد تعلمت أشياء قليلة من بقائي هنا لفترة طويلة*. وأضافت ما إن قمنا من الطاولة: *تذكري، عليك ألا تحملي مرة أخرى*.
تنتظرني أيام سوداء، بالأمس فقط حصلت على لولب، لكن اليوم عليّ أن أجعلهم ينزعونه.
*إذًا، اربطي الأنابيب *قناة فالوبيان*. لا يوجد حل أفضل من ذلك*. أولكر هذه، مليئة بالمفاجآت دائمًا.
توقفت في طريق العودة إلى البيت عند الصيدلية لأسأل عن الأنتابيوز، لكني لم أملك مالًا يكفي. وعندما تخطيت باب شقتنا، واجهني مشهد لم أتوقعه أبدًا: أمي وآيسي يتبادلان الحديث عند المائدة. خبزت أمي بعض الحلوى وأعدت الشاي، وكانتا تلعبان معًا في المنزل. كانت أمي الضيفة وآيسي المضيفة، في انتظار زوجها للعودة إلى البيت. لأجل محبة الله! تضرعت آيسي لأمي وأبي... إذا كنتما محبين بحق ومتعاطفين فلماذا لم تظهرا الشيء نفسه لي؟ في النهاية رأيت أن آيسي على الأقل لديها شخص ما لتحبه في حياتها.
قلت منتحية بأمي جانبًا: *سأقوم بعملية ربط لأنابيب الرحم. أعرف أنكم تملكون بعض المال مخبأ في مكان ما، رجاء أعطوني تكاليف العملية*. رفضت أمي قائلة إن هذا حرام. توسلت إليها: *أمي، أنا لدي بالفعل طفلتان، أليس ذلك حرامًا كفاية؟ لا حاجة لي لجلب مزيد من المعاناة للعالم*.
ستحترقين في نار جهنم من أجل ذلك، لماذا تجرينني للجحيم أيضًا. وإذا اكتشف رمزي الأمر فليحفظك الله. هل لديك رغبة في الموت؟ آه، تلك المرأة العاقلة، أمي!
هكذا، يفترض أن زوجي على ما يرام عندما لا يشرب. لكن كيف سأعمل على إيقافه عن الشراب؟ احتجت إلى المال لشراء أقراص الأنتابيوز. رمزي يملك المال لكنه يحسب كل ليرة يتركها لي ويسألني كيف أنفقتها. ولا نملك شيئًا في البيت يمكننا بيعه. ثم خطر لي، لدينا كنز دفين في البيت! زجاجات البيرة الفارغة. يمكنني أخذها للمتجر واسترداد الرهن. الأمر مدعاة للسخرية على نحو ما، الحصول على المال لشراء الأنتابيوز من بيع زجاجات البيرة الفارغة. لم يكن بلا مقابل قول الرسول *عليه الصلاة والسلام*: *الذبابة لها جناحان: واحد مسموم والآخر شفاء ودواء*.
تدبرت تعبئة كيسين من أكياس القمامة بزجاجات البيرة. عندما عدت من المتجر، أحصيت ما جنيته من مال، ما يكفي فقط لشراء الأقراص، لكن لا تكفي لإجراء عملية الربط. لا تظن أن مثل هذا التفكير لم يطرأ على عقلي: *أمر سيئ للغاية أنه لا يشرب أكثر*.
طبخت في تلك الليلة الطعام للعيد، دون أن أدخر أي شيء. عندما عاد رمزي جلس إلى الطاولة، ووضع شريط الكاسيت في وضع التشغيل لتحسين مزاجه. أفلح الأمر. قال: *قومي، وارقصي لي*. هذه المرة كانت لدي مهمة، ولم أنوِ أن أجعله يمزق أي عملة نقدية. وبعد أن تجرع بعض الراكي قمت وبدأت الرقص، رافعة يدي في الهواء مثل راقصة شرقية، وبعدها ادعيت السقوط مغشيًّا عليّ. لصق ورقة نقدية على جبهتي، أول بقشيش لليلة. قال: *هزي أردافك*. فعلت الأمر،

وعندما ملت أمامه بوسطي، دفع بورقة نقدية في شق صدري. ثم تبادر إلى ذهنه أن على آيسي أن ترقص هي الأخرى. هزت كتفيها رافضة، راشقة إياه بنظرة باردة: *لا أريد أن أرقص*. همست في أذنيها: *آيسي، ارقصي قليلًا، هذا لن يقتلك*. قامت مقطبة جبينها وبدأت في الرقص. سريعًا كان يدس المال في فتحة بلوزتينا. قال: *هزي! هزي ردفيك!* عندها أدركت أنني اندمجت مع الموسيقى وكنت أرقص بجنون حول الحجرة. كان رمزي يصفق، ولعابه المخمور يتساقط أسفل ذقنه وهو يشاهدنا. كانت آيسي لا تزال ترقص ببرود، وقد انقلبت شفتاها على هيئة عابسة. قلت لنفسي: *ليلا، أيّ أم صرتِ! أنتِ تصيبينني بالغثيان!* حاولت الابتسام وأنا قبالته، لكن عندما رقصت وظهري له، تجمعت الدموع في عينيّ. بدأت آيسي الشعور بالتعب وقالت: *لا مزيد*. وجلست. كنت مرعوبة أن يجن جنون رمزي غضبًا مثل المرة الأخيرة. بدلًا من ذلك، توقف عن التصفيق، وانحنى على ركبتيه واحتضن آيسي، وقبلها على خديها وقال: *يا لك من فتاة طيبة، لا تملكين روح عاهرة مثل أمك!* وعض على شفتيه ملتفتًا إليّ قائلًا: *من تظنين نفسك كي ترقصي هكذا؟ من أجل المعاشرة إذا كنا سنموت غدًا، أنت ستهربين لتبدئي الرقص في ملهى ليلي حقير*. استطاعت آيسي سماع كل كلمة قالها، جالبًا كل الطاقة السلبية لحياتنا في الهواء مثل مغناطيس. ثم ركل جهاز التسجيل فانطلق الشريط خارجه مثل كومة من الأمعاء. التفت تجاهي، مرسلًا قبضته أسقطتني على الأرض، قمت أدلك كوعي. وكما يقال، ربما انكسرت الذراع، لكنها اختفت في القميص.

***

عندما أغمي على رمزي، قمت بجمع الموال التي رماها علينا من على الأرض.. ما زالت غير كافية لإجراء عملية الربط. في اليوم التالي، بعد أن عدت بآيسي من المدرسة، توقفنا عند الصيدلية: *أريد بعض أقراص أنتابيوز*. لكنهم رفضوا بيعها لي وقالوا: *لا بد من وصفة دوائية مكتوبة*. من الواضح بسبب أنه يستخدم لعلاج إدمان الكحول. سرنا أعلى وأسفل الطريق، على أمل أن نجد مكانًا آخر ربما يبيعه لنا، دخلنا كل صيدلية متاحة، لكن دون جدوى. قلت: *آيسي علينا الذهاب إلى المستشفى*.

أمي، ما هو الأنتابيوز؟

دواء يا عزيزتي. عندما يأخذه أبوك سيتوقف عن الشراب.

في المستشفى دخلنا من باب لآخر دون أن نرى أولكر في قسم الأورام. سألت أحد المساعدين: *أنا أبحث عن أولكر، أتعرفها، الزائرة*.

في حجرة 302، لقد أتيت في الوقت المناسب، المريضة التي ترعاها ستخرج غدًا. كانت أولكر أشهر من كبير الأطباء.

طرقت باب حجرة 302 بلطف وفتحته. أنعمت النظر للداخل، ورأيت أولكر جالسة بجوار السرير، تحيك كالعادة، وكانت المريضة نائمة. عندما رأتني قامت مهتاجة ودفعتني إلى الممر. *ألم أقل لك إن كلانا لا يمكننا البقاء معًا هنا؟*.

ليس هذا سبب مجيئي. لم يبيعوا لي أنتابيوز من دون وصفة طبية. فكرت أنك ربما تستطيعين مساعدتي. توقفت في مكان ليس ببعيد عن المستشفى أمام صيدلية، ولفت نظري اللافتة المعلقة على الباب لأن كيسها يحمل نفس الاسم عليه: *صيدلية الشفاء* قالت: *أعطيني المال، وانتظريني هنا*. أمكنني رؤيتها تتحدث إلى الصيدلي. خرجت بعد دقائق ومعها حقيبة صغيرة مكتوب عليها:

صيدلية الشفاء. الآن لدينا حقائب متطابقة. *لا تنسي، نصف قرص فقط وإلا قد تقتلينه. سيقومون بتشريحه وإذا اكتشفوا أثر الدواء في أوردته، سيقع اللوم عليك، وسيرحلونك للسجن*. قلت بنظرة خاطفة مرعوبة إلى آيسي: *أولكر، ما الذي تقولينه بحق السماء؟ كفى هذه الطاقة السلبية، نحن لسنا في حاجة إلى مزيد منها*. لكنها لم تتوقف: *نصف قرص، تذكري ذلك*.
قلت: *بالله عليك يا أولكر، دعينا نشتري لك بعض القماش*. خطر لي أنني طالما أملك المال فالشيء الوحيد الصحيح هو أن أرد الجميل. في نهاية المطاف المرأة البائسة ليس لديها من تلجأ إليه، لذلك يجب أن أساعدها قدر استطاعتي.
ذهبنا إلى متجر الخردوات. أردت الحصول على بعض الخيوط القرمزية لحياكة شيء ما للفتيات وأرادت هي بعض الخيوط الخضراء. قالت: *هذا اللون الأخضر الفليوم لطيف*. واختارت لي: *البينك أو الباكسيل الوردي*.
بالمال الذي جنيته من بيع زجاجات البيرة مع البقشيش الذي نلته أنا وآيسي من الليلة السابقة ذهبت للبنك وفتحت حسابًا، معتقدة أنني أستطيع أن أدخر القليل من مال رمزي الذي يمنحه لي لشراء احتياجات البيت، ربما أجمع ما يكفي لإجراء عملية الربط.
انفتح باب الجحيم. عندما عاد رمزي إلى البيت انهار كل ما بنيته. *اتصلت بالتليفون عدة مرات ولم يجبني أحد، أين كنت؟* لم يسألني أنا بل آيسي. بنظرة أثبتت أنها فتاة *شريفة*. دون تردد أجابت: *في المستشفى*. كنت على يقين أن اللعبة انتهت، ستخبره عن الأنتابيوز، لكنها أضافت: *لدي احتقان في حلقي، وذهبنا للاطمئنان على حالتي*. آه آيسي! أيتها الفتاة الذكية. حتى في سنك هذا تعلمت كيف تكذبين.
أذبت أحد أقراص أنتابيوز في كوب من الماء وأنا في المطبخ، وصببت نصفه في حساء رمزي. فقط للتأكد أنه لن يجد الأقراص أو يكتشف ما هي بالضبط، وضعتها في زجاجة فارغة لأسبرين الأطفال، ثم وضعت الزجاجة في الرف العلوي للثلاجة حتى لا تتمكن آيسي من الوصول إليها.
ابتلع رمزي حساءه وقال: *اجلبي لي بعض الراكي*.
لا يوجد أي منه.
بدأ في الاستعداد للذهاب إلى المتجر لشراء الراكي. قلت: *دعنا نأكل أولًا، ثم يمكنك الذهاب*.
أخبرتني أولكر: *إذا أخذ أنتابيوز، لن يرغب في الشراب*. كانت كل آمالي معلقة بتلك الكلمات. اعتقدت أنه مع بدء فعالية الدواء في العمل أنه لن يرغب في الراكي. قلت وأنا أغمز له: *دعنا نذهب إلى الفراش مبكرًا الليلة*. لكن كل جهودي ذهبت هباء. قام بفتح زجاجة وبدأ يصب كأسًا تلو الأخرى. كنت شبه متأكدة أنه سيموت، وعندها سأصبح قاتلة. وإذا قلت له: *لا تشرب المزيد من الراكي. لقد وضعت دواء في حسائك*. سينتهي الأمر بي مقتولة.
مرة أخرى، ظل يشرب كما كان يفعل لسنوات، ولم يحدث له أي شيء أبدًا. هل ظننت أن نصف قرص سيقتله حقًّا؟... يا رب، لا تدعه يموت! رأيته يصب لنفسه كأسًا أخرى، ولم أستطع منع نفسي من التساؤل كم من الكؤوس يمكن أن تقتله. أخذت نشرة التعليمات من علبة الأنتابيوز إلى الحمام وبدأت القراءة:
أقراص أنتابيوز
الاستخدامات:
للاستخدام في علاج إدمان الكحول المزمن.

حسنًا، بدا ذلك طيبًا حتى الآن.
موانع الاستخدام:
يجب أن ينتبه المرضى إلى التفاعلات التي قد تحدث إذا ما شربوا الخمر بينما يتعاطون الدواء.
تساءلت: ألا يعرف الذين صنعوا هذا الدواء مع أي نوع من الناس يتعاملون؟ المدمن على الكحول هو شخص مدمن، وهم سيشربون في كل حال.
يجب تحذير المرضى أنهم عند تعاطي الدواء، لا يمكنهم استهلاك الكحول. *رمزي، ابتعد عن الشراب لأنه سام مثل الزنك!*.
لا يجب السماح للمرضى بأخذ أي دواء للسعال، أو استخدام أي منتجات مثل لوسيون ما بعد الحلاقة والتي تحتوي على كحول. أوكي، يمكنني فهم مسألة عدم الشرب، لكن هذا بدا فيه بعض المبالغة. ربما كان الأفضل إذا أخبرونا ما الذي سيحدث إذا ما شرب المريض زجاجة كاملة من الراكي بينما يتناول الدواء.
التفاعل مع الكحول قد يستمر لأربعة عشر يومًا بعد توقف المريض عن أخذ الدواء. لذا إذا لم يمت في تلك الليلة، يجب أن أقلق على مدار أسبوعين حول إذا ما كان سيموت أم لا.
استهلاك أقل كمية من الكحول يمكن أن يؤدي إلى تفاعلات مثل الحكة، والحساسية، واضطراب ضربات القلب، والصداع، والإعياء، والغثيان، والقيء، والعرق، والعطش، وآلام بالصدر والهلوسات. كان رمزي يعاني من وسواس المرض بعض الشيء. أمكنني فقط أن آمل أنه لن يذهب إلى طبيب. لأنهم إذا أجروا تحليلًا للدم وظهر أنه يتناول أنتابيوز...
الاستخدام المستمر لهذا الدواء بعيدًا عن هذه التفاعلات يمكن أن يؤدي إلى هبوط بالدورة الدموية، أو جلطة بالقلب، والإحساس الحاد بالتعب، وإذا تركت هذه الأعراض دون علاج، فقد تؤدي إلى الموت. لم أستطع إلا التساؤل: إذا أرسلوني للسجن، هل ستدعني إدارة حماية الطفل آخذ فتياتي معي؟
يجب أن تُجرى اختبارات *ترانس أمينيز* عند البدء في العلاج وبعدها على فترات ثابتة. كما يجب إجراء تحليل صورة دم كاملة كل ستة أشهر. ذلك بالطبع إذا عاش المريض إلى هذا الحد.
لا ينصح باستخدام هذا العلاج أثناء الأشهر الثلاثة الأولى من الحمل وأثناء الرضاعة. حسنًا، لا داعي للقلق حول ذلك.
الأعراض الجانبية:
بالله عليك، لقد قلت للتو إنه يمكن أن يؤدي للموت، أي شيء آخر ممكن أن يحدث؟
التنميل، والإعياء، ونوبات الصداع، والحكة، ورائحة فم كريهة، والعقم. أنتابيوز يمكن أن يؤدي أيضًا إلى التهاب في العصب البصري، أو التهاب الأعصاب الطرفية، والالتهاب المتعدد للأعصاب. هذا مثير للاهتمام. كانت الأعراض الجانبية للدواء مثل وصفة علمية لكل اللعنات التي أطلقتها على رمزي طوال سنوات زواجنا.
عندما يصل مستوى الكحول في الدم إلى 50 مجم لكل 100 ميليلتر، ستصبح الأعراض الجانبية واضحة أكثر فأكثر، وعند مستوى 150 مجم لكل 100 ميليلتر يمكن أن يسقط المريض فاقدًا للوعي. حتى دون دواء، زوجي لم يكن في وعيه مع احتساء الخمر. تساءلت إذا ما كان الأفضل تركه للقدر.
أو، ماذا لو كان سيتقيأ فعلًا، مُفرغًا ما تناوله من دواء؟ كنت متاكدة أنه سيموت أمام ناظري، ولا

توجد وسيلة لأخذه إلى طبيب إذا ما عرج فجأة. علمت فقط أنهم سيكتشفون أمر الأنتابيوز.
وضعت البنات في أسِّرتهم وذهبت إلى الفراش بعدها. بدا ذلك أفضل من مراقبة رمزي وهو يموت. لكني لم أستطع النوم لذا تناولت نصف زجاجة آيسي لعلاج السعال، على أمل أني لن أجده ميتًا في الصباح.
عندما استيقظت في الصباح، كان رمزي إلى جواري في السرير، نائمًا كالميت. مثل الميت، أم ميت تمامًا؟ لكزته لكنه لم يتحرك. هززت كتفيه قائلة: *رمزي، رمزي! استيقظ!* لا شيء. بدأت في الصراخ، معتقدة أنه مات، مفكرة أنهم سيعتقلونني، وستصبح بناتي شهيرات بوصفهم *أبناء قاتلة*. لكزته مرة أخرى: *رمزي، استيقظ أرجوك!* لم يكن يخطر على بالي أبدًا ولو بعد ألف سنة أنني سأبكي لأن هذا الوغد مات. *رمزي! استيقظ!* ظلت دموعي تتساقط. *رمزي، لا تتجرأ وتموت على يديّ!* فتح عينيه وغمغم: *ما الذي يجري بحق الجحيم؟* الحمد لله، كان حيًّا! عندها، الله، انظر فقط لما أنا شاكرة له! تمتم: *هل فقدت عقلك الجليدي هذا؟ ما الأمر، توقظيني بكل هذا الصراخ... في هذه الساعة اللعينة*. قلت: *لا يوجد أي خطب، اعتقدت فقط أنك مصاب بمرض أو شيء ما أصابك لأنك لا تستطيع الاستيقاظ*. *على أي حال. قومي وأعدي لي بعض البيض المسلوق*... *لكن البيض المسلوق قد يبعثك على الشعور بالغثيان*.
بيض مسلوق مع زبادي، ووضعت عليه فلفلًا أحمر وبعض البهارات الأخرى. لم أكن لألمس مثل هذه الخلطة. لكن السيد القديم صاحب المعدة الحديدية أحب هذا الخراء.
ذهبت للمطبخ وبدأت إعداد البيض المسلوق. قلت لنفسي، انظري، على الأقل هو لم يمت. أعتقد أن المشكلة أنه بدأ الشراب قبل أن يتمكن الدواء من الوصول لأجهزة جسمه. هو لا يشرب أثناء النهار، لذا فكرت أنني إذا أعطيته بعض الأنتابيوز في الصباح، لن يكون راغبًا في الشراب عندما يعود إلى البيت. بينما تبدأ الزوجات النمطيات بنقع البقوليات في الصباح لأجل العشاء، ها أنا أنقع نصف قرص أنتابيوز. خلطته مع الزبادي وازدردها كلها.
انتظرت بنفاد صبر حتى المساء لأدور حول المكان، وأنا على يقين بأنني إذا أرسلت للسجن، سترسل إدارة حماية الطفل بناتي لملجأ للأيتام. فليحفظهم الله. انتظرت وانتظرت لكن رمزي لم يظهر، ما جعلني أفكر أن الأنتابيوز قد ضربه في مقتل، وأنه كان راقدًا في مكان ما ميتًا. انتظرت عند الباب وأخبرت آيسي أن تبقى عند النافذة لتخبرني إن رأته قادمًا. لأول مرة في حياتي كنت آمل أن يعود زوجي إلى البيت.
عائلتك تنتظرك
كلهم ينتظرون في البيت
رمزي لا تلقي بذلك وراء ظهرك
لا تكن مثل مخمور ذهب إلى الضلال.
قالت آيسي: *ها هو قادم*. أخيرًا! أوضح لي أنهم تلقوا شحنة جديدة من القماش وكان عليهم أن يقوموا بتفريغها بالكامل. بدا لي على ما يرام. قال: *اجلبي لي بعض الراكي*. كان ذلك رمزي وليس مجرد شخص يتطلع إلى شرب الكحول. أقسمت إنني لن أضع أي أقراص أخرى في طعامه أبدًا.
بعد أن أغمي عليه، قضيت الليلة بطولها جالسة إلى جواره، أتفحصه لأتأكد أنه لا يزال يتنفس وأن قلبه لا يزال ينبض. أول شيء قاله عندما استيقظ في الصباح: *لدي صداع يكاد يفلق رأسي. ربما

لأنني خلطت البيرة مع الراكي*. بالطبع لم أقل له: *والأنتابيوز أيضًا يا زوجي العزيز*. أعددت المائدة للإفطار، وأرضعت الطفلة ووضعتها في مهدها. وعندما ذهبت للمطبخ لإعداد بعض الشاي، رأيت رمزي ممسكًا بزجاجة أسبرين الأطفال التي عبأتها بأقراص الأنتابيوز. صرخت: *ضع هذا جانبًا!*.
بلع ريقه: *ماذا دهاك؟*.
تناول الدواء دون استشارة طبيب أولًا أمر له مخاطره.
ما الذي يمكن أن يحدث بحق الجحيم؟ إنها فقط حبوب أسبرين أطفال. رأسي يؤلمني حتى الموت فتناولت حبتين... *يا إلهي، اثنتان! تضرعت إلى الله أن يأخذ أبواي البنات عندما يرسلونني للسجن*.
أوصلت آيسي للمدرسة، ودون البقاء حتى إذاعة نشيد الولاء، ذهبت رأسًا للصيدلية واشتريت بعض الأقراص المنومة. لم يسألوا عن الوصفة الطبية. بعد إرضاع الطفلة، رقدت وغططت في النوم، على يقين بأنني سأستيقظ كقاتلة.
استيقظت على صوت جرس الباب يدق والطفلة تبكي، تقلبت في السرير ونمت مدة إضافية. كان جرس الباب لا يزال يدق والطفلة تبكي، قمت وفتحت الباب، كانت آيسي. انتظرتني لساعة أمام مدرستها، ولما لم أظهر، سارت وحدها إلى البيت. أرضعت الطفلة لكني كنت لا أزال أشعر بدوار، فجلبتها للسرير معي، وقلت: *آيسي، تعالي وارقدي إلى جوارنا، سنغفو ثلاثتنا لأخذ قيلولة معًا*.
لكني لست نعسانة.
لا يهم، فقط ارقدي معنا. أومأنا برؤوسنا كلنا. آخر تفكير جال بخاطرنا قبل الدخول في النوم كان: *لا بد أن رمزي ميت الآن*. ثم جاءني صوته يتعالى: *ما الذي تظنين نفسك فاعلة بحق الجحيم؟* ظننت أنني أحلم. *ليلا، قومي!* لسعني الضوء في عيوني عندما فتحتهما. رأيت رمزي واقفًا إلى جواري. كان جانبًا مظلمًا. لا زال حيًّا. سأل: *صار حلمي حقيقة! لماذا أنت راقدة هنا مثل الموتى؟* لكنني لم أكن نائمة مثل الموتى. كنت نائمة مثل قاتلة، وقلت: *رأسي يؤلمني*. قال: *حسنًا، خذي أسبرين وأعدي العشاء*.
قمت، شاعرة كأن عقلي تهدل داخل جمجمتي. بداية أعددت كوبًا من القهوة وجلست إلى المائدة أفكر، *الحمد لله! عليّ التخلص من تلك الحبوب*. وما إن أوشكت على إفراغ الزجاجة في سلة المهملات، سمعت جلبة في غرفة المعيشة. عندما أسرعت للداخل رأيت آيسي راقدة على الأرض. سألت: *ماذا حدث؟*.
تبين أن رمزي طلب منها أن تجلس إلى المائدة، فقالت إنها لا ترغب في ذلك لأن المائدة تفوح منها رائحة الراكي، فقام رمزي بضربها.
قلت: *اجلسي يا آيسي*. التفت إلى رمزي وقلت: *أنت محق، فهي لم تظهر احترامًا لك، لكن انسَ الأمر، سأعد حساء باردًا لطيفًا مع الزبادي والخيار*. بعد إذابة قرص أنتابيوز في كوب ماء، قلبته في وعاء الحساء، وازدرده كله.
***
منذ يوم الولادة، دار نفس التفكير المنصوص عليه في رأسي: *يا ربي، إلى متى سيعيش هذا الشخص البشع؟* وصارت الأمور للأسوأ من كل النواحي عندما ولدت ابنتنا الثانية. *إذا لم يمت

رمزي... سأهرب لأصبح مومسًا، أو سأقتله لأصبح قاتلة. إما ذلك، أو سأقوم بقتلنا جميعًا ذات يوم. أو أننا سنقتل أنفسنا لننجو بأنفسنا من هذه التعاسة*. لم يمت رمزي.

***

مرَّ أسبوع. واصلت إعطاءه نصف قرص أنتابيوز كل يوم، وكانت الأفكار تعذبني: *هل سيموت اليوم؟ وإذا فعلها ومات، هل سيقومون بتشريح الجثة؟ وإذا ما فعلوا، هل سيقررون أنه كان الأجل أم سيجدون أثر الأنتابيوز في دمه؟ وإذا وجدوه، هل سيرسلونني للسجن؟ لم أكن لا نائمة ولا مستيقظة طول الوقت، أتأرجح ما بين الحالتين. وذات صباح قال لي رمزي: *ليلا، لدي آثار ضرب على صدري، لا أدري من أين أتت*. ما كان يعني أن الآثار الجانبية للدواء بدأت في الظهور، فقلت: *إنه مجرد طفح جلدي، ضع بعض بودرة الأطفال وسيزول*.

عندما أوصلت آيسي للمدرسة، أعطيتها مفتاح الباب الأمامي إلى البيت. *إذا لم أحضر لأقلك إلى البيت، عودي وحدك وافتحي الباب وادخلي*. ورجعت إلى البيت وأخذت قرصي منوم. لولا البنات، لم أكن لأرغب في أن أصحو أبدًا، لكني لم أستطع تركهم مع... لو مات رمزي، سأصبح إما مومسًا أو قاتلة... إذا لم يمت... آيسي!

استيقظت على آيسي تلكزني في كتفي وصوت الرضيعة تبكي في الحجرة الأخرى. *أمي اصحي، اصحي*. قلت لها: *دعيني وشأني*.

لكنها لم تتركني، وواصلت الرضيعة البكاء. قلت: *فقط دعيني وشأني*. واصلت لكزي، وواصلت الرضيعة البكاء.

اذهبي واطمئني على أختك.

هي جائعة.

فقط اذهبي.

كانت الرضيعة لا تزال تبكي، وآيسي تجذبني من ذراعي قائلة إنها جائعة هي الأخرى. اللعنة عليها! لو لم يكن الأمر يخصها، لم أكن لأستمر في حياتي مع حماقة رمزي كل تلك السنوات.

اصحي يا أمي!.

اللعنة على الطاقة الإيجابية! نهضت بصورة جنونية من السرير وصفعتها على وجهها.

***

في مسلسلات التلفزيون عندما تصفع أم طفلها، عادة ما يستاء الطفل ويتمتم: *كيف أمكنك أن تفعلي ذلك معي؟* عندها تبكي الأم: *أنا آسفة جدًّا! لا أدري ماذا جرى لي. فقدت عقلي للحظة. أنا آسفة جدًّا، جدًّا*. ثم تجري الطفلة، محتقنة بالألم والاستياء، بعيدًا وتغلق على نفسها في حجرتها.

أيًّا ما كان ما تفعله، لا تتمكن الأم من جعل ابنتها تسامحها. ها ها! ما الذي فعلته ابنتي أنا؟ جلست وأحنت رأسها، دون أن تنطق بكلمة واحدة. أصابني وخز الضمير. على مدى كل تلك السنوات، كنت أحاول حمايتها من ضرب أبوها لها...

أرضعت الطفلة الرضيعة، ومنحت آيسي بعض بسكويت الشاي وكوبًا من اللبن. عاد رمزي إلى البيت. لم أكن معنية بوضع آيسي في سريرها. فقد قمت بضربها فعليًّا. ما الذي يهم إن أصابتها الطاقة السلبية في بيتنا الآن، وسمعت شجارنا أنا وأبوها؟

***

كان رمزي في حالة جنون، لكن عندما شرب مع ما تناوله من أقراص أنتابيوز، فقد اتزانه حقًّا.

قبل أن يجد عذرًا ليبدأ شجارًا معي، كان يرعد ويزبد بكل قوته. كان يتكلم أثناء نومه، وينفجر فجأة في البكاء، ويشكو من تسارع نبضات قلبه.. وأنه مصاب بوسواس المرض، ويقول: *سأذهب للطبيب*.
رمزي، ما الغرض من الذهاب إلى الطبيب؟ من الواضح أنك تسمم نفسك بشرب الكثير من الخمر. إذا ذهبت للطبيب، سيرسلونك إلى مصحة للتأهيل من إدمان الخمر. توقف عن الشراب لفترة حتى. إذا لم تشعر بتحسن سنذهب لرؤية الطبيب. لم يشرب لعدة أيام بدافع الخوف من دخول مصحة، وواصلت تسريب الأنتابيوز في حسائه طالما كان بعيدًا عن زجاجة الخمر. بدا أن الدواء قد أتى بنتيجة، بالنظر لحاله دون تناول الشراب لعدة أيام.
لكن عمي كان مخطئًا، لم يكن رمزي أكثر رزانة عما كان عليه وهو مخمور. فلأنه كان يتحرق شوقًا ليشرب قام ببث الرعب في نفوسنا. بعدها بأقل من أسبوع عاد إلى البيت مخمورًا. لم يكن للدواء ولا التوقف لفترة أي نتيجة. في نهاية المطاف، توقفت عن إعطائه أقراص أنتابيوز.
***
استيقظت على صوت الرضيعة تبكي. كبرت الآن حتى إنها يمكنها أن تبدأ المشي في أي يوم. وقررت، كفى إرضاعًا لها. خلطت وصفة من الحبوب للأطفال ووضعتها في زجاجة الرضاعة. وقلت: *آيسي إذا بكت أختك وأنا نائمة أعطيها هذه الزجاجة*.
***
طلبت مُدرِّسة آيسي مقابلتي في مكتبها. كنت دائمًا مترنحة بسبب الأقراص المنومة في تلك الأيام. بعد محاولة تصفيف شعري الذي صار مجعدًا لعدة دقائق، ارتديت ملابسي، ووضعت الطفلة في سريرها لتنام، واتجهت إلى مدرسة آيسي. لم تكن لديها أي مشكلة في الذهاب وحدها إلى المدرسة والعودة إلى البيت. في قريتنا، حتى الأبقار كانت تعود إلى حظيرتها بعد الرعي في الحقول وحدها. لذا لِمَ لا تكون آيسي قادرة على فعل الشيء ذاته؟ رمقتني المُدَرِّسة بنظرة تعني أنها تعطيني درجة الرسوب في مظهري ونظافتي الشخصية. سألتني إذا كانت لدينا مشاكل عائلية لأن آيسي تراجع مستواها وأصبحت غير اجتماعية. قلت: *لا يوجد أي خطب في حياتنا العائلية*.
سألت: *لماذا لا تجلبين زوجك معك يومًا حتى نتمكن من الحديث معًا بخصوص ابنتكم؟*.
ذلك سيكون صعبًا للغاية فهو يعمل ساعات طويلة.
أخمن أنكما لا توليان ابنتكما الرعاية اللازمة. آلمني قولها ذلك.
أخبرتني أن آيسي لا يكون معها أبدًا ما تأكله للغداء سوى بعض الحلويات من المخبز. وأنها تؤدي واجباتها المنزلية بأسوأ ما يمكن. ولم يكن لديها أبدًا مناديل في زيها المدرسي. وكلما فحصوا أظافر التلاميذ وجدوا أظافرها طويلة ومتسخة دائمًا. ثم أضافت: *أنا أعرف كيف يبدو الأمر بعد ولادة طفلة أخرى فلا بد أنه أمر شاق، لكن لا تزال آيسي في حاجة لرعايتك*. كيف تجرؤ تلك الساقطة على الحديث معي بهذه الطريقة! ما الذي تعرفه عن حياتي؟ كما لو كانت الأمور كلها ناصعة ووردية وأنا لا أراعي ابنتي كما ينبغي. هل كلف أي أحد نفسه عناء رعايتي عندما كنت صغيرة؟ الأمر لا يتعدى أنني ولدت وكبرت. ذلك ما كانت عليه حالي. ثم قالت: *لقد أصبحت آيسي عدائية بعض الشيء. ذات يوم حاولت طعن زميلها إيليف في رقبته بقلمها الرصاص. هل أنت متأكدة أنها لا تواجه أي مشاكل في البيت؟*.
*أبوها يضربني، ويصفعها على وجهها بين الحين والآخر، وعندما بدأت تئن في بعض الأحيان لم

أستطع كبح نفسي أنا الأخرى فصفعتها*. دُهشت المدرسة فتدلى فكاها. *ما أهمية الأمر؟* سألتها: *ألا تصفعين التلاميذ بين الحين والآخر؟*.
كانت آيسي واقفة في نهاية الممر ناظرة إليّ، شاعرة بالعار ربما من مظهري البائس. في تفكيري، فأنا على الأقل تحملت عناء الحضور للمدرسة والحديث مع مُدَرِّسِتها. كانت سترتي مقلوبة وشرابي كان ممزقًا. رماني أولياء الأمور الآخرون بنظرات احتقار وقحة. ستكون خسارة كبيرة لي إن لم يعودوا راغبين في وجودي في اجتماعاتهم. وبينما كنا في طريق العودة إلى البيت قالت آيسي: *أمي لقد سببت لي حرجًا في المدرسة حقًّا*.... صفعتها.

***

استيقظت. كانت آيسي تبكي. فكرت *ما الأمر هذه المرة؟* بين شهقاتها والحازوق شرحت لي أنها شربت بعضًا من الراكي الخاص بأبيها ظنًّا منها أنه ماء. أدركت من الرائحة طبيعة ما شربته وبدأت في بصقه. قالت: *أمي هل سأصبح مدمنة كحول مثل أبي؟ هل يجب عليّ أن أتناول أنتابيوز أنا أيضًا؟* احتضنتها وقبلتها في خديها. ها ها! لكنها دفعتني بعيدًا. قالت: *أنت تثيرين شعوري بالغثيان. فرائحتك نتنة*. صرخت فيها: *أيتها الغبية! إذًا أنت لا تحبينني، هل هذا هو الأمر؟ من بحق الجحيم تظنين نفسك، أيتها الفتاة الصغيرة القذرة*.
أريد أن أعيش مع جدتي وجدي. كل ما تفعلينه أن تنامي، وعندما لا تكونين نائمة تضربينني. سترعاني جدتي. هاهاها! كما لو أنني لم أفكر أبدًا في حثهم على أن يتولوا رعاية الفتاتين. آيسي هذه ذكية مثل شيطانة! هاهاها!

***

استيقظت. كان جرس الباب يدق بلا توقف. ما الأمر هذه المرة بحق الجحيم؟ فتحت الباب. كانت أمي واقفة أمامي مع آيسي، ودخلت كالعاصفة، صارخة في وجهي: *أي نوع من الأمهات أنت؟ فقد طلبتها آيسي وشكت لها مني قائلة: *أمي لا تراعيني لا أنا ولا أختي*.
قالت أمي: *بيتك في حالة دمار، مثل حفرة من خراء حقًّا*. وقالت إن طفلتي ستصابان بالمرض من العيش في هذه القذارة. سألتها: *ما الخطب الكبير؟ يحتاج الأطفال إلى بعض الميكروبات حولهم. عندما تحصلين على لقاح ما، أليس هو عبارة عن ميكروبات مُضعفة؟ أنا ألقح الأطفال. هاهاها!* شعرت بحالة من الدوار، هذا ما كانت حالتي عليه، مترنحة. ربما تماديت في أخذ الحبوب المنومة. كان جلدي كأنه يزحف، وعيناي وكأنها ممتلئة بالرمل، واستطعت بالكاد أن أقف. كانت أمي تصرخ فيّ أكثر فأكثر. ألا تعلم أي شيء عن حياتي؟ ألم يتم تنشئتي بشكل مختلف عن ذلك؟ هاهاها! *أمي، سأمنحك جائزة الأم المثالية لهذا العام! هاهاها!* بعدها بدأت في إلقاء الشعر:

عندما أبتسم، وجهك الباسم يبتسم،
عندما أبكي، يبكي قلبك أيضًا،
نهاراتك ولياليك من جرعات الأسى،
أوه أمي الرائعة، لا تشعرين بالحزن أبدًا!

هاهاها! فكرت: *آيسي، لماذا لا تكتبين مقالًا؟ الأم المثالية لهذا العام هي جدتي! يمكنك قراءته في عيد الأم في المدرسة، وستمنحك مدرستك الدرجة النهائية*.
قالت أمي: *أنت ابنة جاحدة، وتحرجين ابنتك، ثم تجدين الجرأة لتردي عليّ*.
حسنًا، خذي البنات وقومي برعايتهن.

تمتمت مذهولة للحظة: *ما الذي تقولينه؟ بالتأكيد يمكنني أن أرعاهم لكن أبوك... وزوجك لن يسمحا بالأمر أبدًا*.
أنت فقط لا تملكين الشجاعة يا أمي، ذلك هو الأمر، أليس كذلك؟ لو كنت أمًّا حقيقية، لما كنت وصلت لهذا الوضع الحرج من الأساس. ولا مرة في حياتك وقفت إلى جواري عندما كان أبي يضربني. ثم قمتم ببيعي لرمزي.
ها! أنا لم أكن أمًّا طيبة أبدًا لكن أنت أم طيبة؟ أهذا ما تقولينه؟ لم أستطع فعل أي شيء لحمايتك، لكن على الأقل أنا لم أضربك أبدًا. لقد أخبرتني آيسي بكل ما تفعلينه معها. دفعتها للخارج مصحوبة بوابل من اللعنات. كانت مستاءة تمامًا. كل شيء للأفضل، قالت إنها تريد المساعدة، لكنها لن تحرك إصبعًا لفعل أي شيء لعين. التفت إلى آيسي: *أيتها الفتاة الصغيرة الساقطة، هل ترين الآن أي نوع من الأشخاص هي؟ لقد هربت منك. إذا لم تستطع أن ترعاني في الماضي، فكيف لها أن ترعاك الآن؟* صفعتها على خدها. ثم ذهبت للنوم.

***

استيقظت. صوت تحطم زجاج. بكاء الطفلة. ماذا حث يا ترى؟ أسقطت آيسي الزجاجة بينما كانت ترضع أختها. انكسرت عند ارتطامها بالأرض. لملمت شظايا الزجاجة. *آيسي لا تمشي حافية. قد تجرحين قدميك*. أترى أنا أم واعية، أفكر في كل شيء. لكن كيف سنطعم الطفلة دون زجاجة؟ لم أكن مستعدة للذهاب إلى الصيدلية لشراء زجاجة جديدة. قمت بغسل إحدى زجاجات البيرة الخاصة برمزي وملأتها باللبن. وأحكمت البرونة على فوهة الزجاجة. إنها ببرونة مثالية. الآن الأكبر والأصغر في بيتنا يمصون زجاجة البيرة. خلال عدة شهور سأحظى بطفلة تبدأ في تعاطي أنتابيوز أيضًا. هاهاها! ذهبت للنوم.

***

استيقظت. كانت ذراعاي مغطاتين بالكدمات. تساءلت إن كنت استيقظت في اليوم الماضي وتشاجرت مع رمزي ثم عدت للنوم. لا يهم. ذلك بالضبط ما حدث. *آيسي، أطعمي أختك الصغيرة ولا تحدثي ضوضاء كثيرة*. ذهبت للنوم.

***

استيقظت. كان بنطلوني مسحوبًا للأسفل حتى كاحلي. بجدية ماذا حدث؟ بالأمس كنت نائمة، وقام زوجي... حسنًا، هكذا تمضي الأمور. قليل من الاغتصاب القديم. آيسي هي كذلك لديها كتاب من الحكايات الخيالية. في إحداها تنام الفتاة لمئة عام ثم تستيقظ عندما يقبلها شاب ما. لقد تمت معاشرتي، لكني لم أستيقظ حتى الآن. على أي حال ذهبت للنوم.

***

استيقظت. كانت زجاجة الأقراص المنومة فارغة. بحثت في البيت كله، وقلبت المكان رأسًا على عقب. تفقدت الثلاجة، والأدراج، في كل مكان. لا توجد أقراص. *آيسي يجب أن أذهب إلى الصيدلية. سأعود على الفور. راقبي أختك حتى أعود*. كان رأسي في حالة دوار. ظننت أن الأمر بسبب الهواء المنعش. لم أخرج من البيت لأيام.

***

مشيت ومشيت. شعرت بإحساس طيب بفعل النسيم. جلست على الأريكة في الحديقة. كان هناك تمثال قبالتي، فكرت أن ألقي بذراعي حوله وأقبله في شفتيه. لم يعد هناك خفراء لحراسة الحديقة، لذا من سيوقفني إن فعلت؟ لن يمنعني أحد عن محبوبي. هاهاها! عُمر لا بد أنه متزوج الآن ولديه

أطفال. تساءلت ما الذي حدث مع نيسيب. عُمر، بنطلونك قصير. هاهاها!
قمت، وأرسلت قبلة في الهواء للتمثال، ومشيت ثانية. بعد فترة قصيرة وجدت نفسي عند مدخل المستشفى. لم أكن متأكدة من سبب ذهابي إلى هناك. ربما لأقابل أولكر؟
عندئذ رأيتها خارجة من الصيدلية التي بجوار المستشفى، ترتدي شالها المطرز بالفضي، حاملة كيسها البلاستيك. ناديت عليها: *أولكر، هذا الشال يبدو مثل طرف النخلة! دعيني أرتديه وألتقط لنفسي صورة به*. ارتعدت أولكر لرؤيتي. أفترض أنني بدوت لها في حال أسوأ من أول مرة رأتني فيها في المستشفى. قالت: *حلوتي، ما الذي جرى لك؟*.
ما العيب في مظهري؟.
أنت تبدين مثل حفار القمامة.
لويت المرآة الجانبية لإحدى السيارات في ساحة الانتظار حتى أنظر لنفسي. بدوت في حالة من الفوضى. مرّرت يديّ في شعري وسألتها: *هل هكذا أفضل؟*.
هل هربت من زوجك؟.
لا، كنت ذاهبة إلى الصيدلية وانتهى بي الأمر هنا بشكل ما. ربما كان ذهني مشغولًا إلى حد كبير. هاها! إلى أين أنت ذاهبة؟.
إلى حفل زفاف. احتجت إلى الخروج لبعض الوقت.
خذيني معك.
نظرت لي من فوق لتحت: *الهيئة التي تبدين عليها، لا تجعلني آخذك حتى للحمام فسأبدو حمقاء، فما بالك بأن آخذك لحفل زفاف*.
بالله عليك، لن يتعّرف علينا أي أحد هناك.
النُّدَّل يعرفونني.
لم يكن عليها الادعاء بأنها من أقارب العروس أو العريس، صارت وجهًا مألوفًا في صالة الاستقبال الآن. *أرجوكِ خذيني لحفل الزفاف. لقد سئمت من بقائي في البيت*.
بداية أخذتني إلى محل التجميل حيث غسلت لي وجهي بمنديل مبلل. ثم قمنا بوضع بعض أحمر الشفاه، وبودرة حمراء للخدود، وأغرقنا أنفسنا بالعطر، ووضعت بعض محدد العيون حتى. فكرت أننا بدونا جميلات إلى حد ما لكنها ظلت على رفضها أخذي إلى قاعة الاستقبال التي اعتادت عليها وأصرت أن نذهب إلى قاعة أخرى خلف الزقاق. رغم ذلك، كان كل واحد من الضيوف مرتديًا أفضل الثياب، وكان باب القاعة مزينًا بالزهور، وسمعنا موسيقى صادرة من الداخل.
شعرنا بالإثارة، دخلنا القاعة، لنجد أنه ليس حفل زفاف بل حفل طهور. لعنت حظي التعس. قلت لأولكر: *دعينا نخرج من هذا المكان*. كما لو أنني ليس لدي ما يكفي من مشاكل بالفعل. آخر شيء أريد فعله أن أحتفل بحفّ عضو لأحد الأطفال*.
ذهبنا إلى قاعة استقبال أخرى على بعد شارع من المكان. أخيرًا كان هناك عريس وعروس. جلسنا في الخلف، نشاهدهم وهم يرقصون. انضم إليهم زوج آخر بعد فترة. ثم بدأت الفرقة الموسيقية في عزف أغنية فلكلورية:
دعنا نسمي الأشياء بأسمائها، ألن نفعل؟
أوه، كم عانيت، ألم أفعل؟
أخذوا مني حبيبي بعيدًا بعيدًا بعيدًا،

والآن أشتاق إليه، يومًا بعد يوم.
قلت: *هلمي بنا يا أولكر، انهضي ودعينا نرقص*. تابعنا إيقاع الموسيقى وكنا نطرقع أصابعنا، ووجدنا طريقنا إلى مسرح الرقص.
النساء والبنات، آن الأوان،
الأبواق تقرع من جديد،
لذا طرقع وطرقع إصبعك وإبهامك،
كن سعيدًا، كن مثلي الجنس، نحن نعيش يومًا آخر.
رقصنا أنا وأولكر. وكيف رقصنا! لو كان زوجي هنا ورآني. رقصت مثل عاهرة تليق بأبشع ملهى ليلي على وجه الأرض. لم أتعثر ولو مرة واحدة. هناك كنا، في حفل الزفاف الزواج مؤسسة مقدسة!
طائري الأسود يطير، أسود الصدر للغاية،
أفراخه مطوية بأمان في عشها.
كان العريس والعروس ما زالا يرقصان، لذلك انضممنا إليهما. المرأة البائسة لا فكرة لديها عن الذي تقحم نفسها فيه... ارقصي، ارقصي، أيتها البلهاء! إذا كنت تقولين إنك ربما تطلقت في يوم ما فلا أحد من الذين يرقصون في حفل زفافك سينظر إليك في عينيك ثانية.
الفتيات يحمصن القهوة، ويقلبونها مرة تلو أخرى،
رنين المقلاة الحديدية، أكثر الأصوات خداعًا.
عندما رقصت لرمزي في البيت، دس مالًا في بلوزتي. في حفل الزفاف، دس الضيوف بداية المال والذهب في رداء العروس ثم رقصت. إنه الشيء ذاته في نهاية المطاف. الفارق الوحيد أن العروس تتلقى المال مسبقًا، والذي ستحتاجه لتقوم بعملية ربط أنابيب الرحم. هاهاها!
أيتها النساء والفتيات، الأوان آن،
الأبواق تقرع من جديد، دع الموسيقى تصدح،
لذا طرقعوا الأصابع والإبهام
كُنَّ سعيدات، كونوا مثليين، نحن نحيا يومًا جديدًا.
بعد بعض الحلوى وعصير الليمون، هنأنا العروس والعريس، ثم التقطنا صورة جماعية. وبينما كنا نغادر، وجدنا صورتنا على طاولة أعدها المصور. انسَ المال الذي يجب دفعه لنسختنا من الصورة، لا يمكنني الاحتفاظ بالصورة في البيت، لأنها دليل على خروجي دون إذن مسبق من رمزي، وأولكر لا يمكنها أن تعلقها على الجدران في حجرات المستشفى حيث تقيم، وقلنا: *لا تعجبنا الصورة كثيرًا*. وغادرنا.
توقفنا لتبادل الأقاويل والإشاعات حول صور العرائس والعرسان الموضوعة في حافظة عند النافذة بالقرب من مخرج القاعة: *يمكنك القول بالنظر لوجه تلك المرأة أنها لم تكن ترغب في الزواج*.، *ذلك الرجل؟ يمكنك في التو القول إنه لا يستطيع القيام بالمهمة*، *انظري لتلك العروس، لا يمكنهم أن يكونوا أقصر منها بكثير*، *لا يوجد الكثير من الشباب في تلك الصورة. أراهن أنهم خدعوا العريس وزوجوه من حماته* ، *هذا الرجل هنا... هذا الآخر... إنه عُمر!*، *المرأة التي إلى جواره ليست نيسيب. على أي حال، لم يكن ذلك الزواج ليتم، المرأة لديها وشاح أحمر حول خصرها. لا، عُمر لم يكن ليتزوج نيسيب، فهي لم تكن عذراء. وكما قال هو، هي

نامت مع الكل وحتى مع أخيه. وأنا لم أكن جيدة له أيضًا، ليس بعد ما فعله بي هايري آبي*.
تجمدت في مكاني. مصادفات كتلك لا تحدث، ولا حتى في مسلسلات التلفزيون. سألتني أولكر:
ما الذي تنظرين إليه؟ هل تعرفين هذين الزوجين؟ بدأت أغمغم: *اسم حبيبي عُمر، هو دائمًا حلو المعشر جدًّا... هاهاها!* توقف الناس المارون بنا ليحدقوا فينا. ضحكت مرة أخرى. *عُمر تزوج. هاها!* كانت أولكر تجرني من ذراعي، لتدفعني للمغادرة. قالت: *لقد أحرجتِنا بما فيه الكفاية استمري في طريقك*.
نتمنى للزوجين الشابين حياة ملأها السعادة والفرح. ها!
كانت أولكر لا تزال تحاول إبعادي عن صالة الاستقبال. قالت: *ألوم نفسي لوثوقي بك حتى آخذك معي لحفل زفاف*... *هاها!*.
من عُمر هذا على أي حال؟ معجب قديم؟.
عندما وصلنا لباب القاعة انهرت في البكاء. *أولكر لقد عاد عُمر من الخدمة العسكرية..*.
حبيبة قلبي لا تفعلي هذا. الشارع ليس مكانًا تبدئي فيه البكاء. دعيني آخذك إلى عنبر طوارئ الأمراض النفسية. يمكنك البكاء كيفما شئت هناك.
خرج رجل يعمل في قاعة الاستقبال وسأل: *عذرًا، هل توجد مشكلة هنا؟* بعد أن حدقت فيه لثوانٍ قلت: *الرجل الذي يتزوج في الداخل حبيبي*. ثم انفجرت في الضحك. جذبتني أولكر وقالت بحدة واستعجال: *واصلي السير!* بدأنا السير بعيدًا عن المكان. سألتني: *لماذا قلت ذلك؟ سيظنون أنك جادة فيما قلت*، غمغمت: *دعيهم يظنون ذلك*.
*ماذا لو عرفت العروس بالأمر؟ سيفطر هذا قلبها. ماذا لو تطلقا، وسيكون كل هذا بسبب ما قلته؟ *.
نحن نحاول لسنوات أن نحصل على الطلاق من أزواجنا، إذا استطاعت أن تفعلها في يوم زفافها، سأعطي الفتاة اللعينة ميدالية.
تردد صدى ضحكنا عبر الشارع.

***

سألتني أولكر: *إذًا الأطفال يقيمون مع أمك؟* أجبتها: *آه! نسيت أمرهم تمامًا. لا إنهما بالبيت، أنا واثقة أنهما بخير*. قالت: *هل جننت؟ لا يمكنك أن تتركي أطفالًا في عمرهم بالبيت وحدهم! هيا بنا، دعينا نذهب إليهم. صلي لله ألا يكون قد أصابهم مكروه*.
عند دخولنا الشارع رأيت طفلتي الصغرى في البلكونة ممسكة بالسور الحديدي، تنظر للشارع.
انظري، لقد بدات المشي. قالت أولكر: *حبًّا بالله، إنها على وشك السقوط! أسرعي!*.
جرينا للداخل وأمسكت بابنتي الصغيرة ودخلت بها من البلكونة. كانت آيسي ممددة على أرضية غرفة المعيشة، تشاهد التلفزيون. صفعتها مرة واحدة قائلة: *لماذا لا تراقبين أختك الصغيرة؟ كانت على وشك السقوط من البلكونة*. وعندما استدرت صفعتني أولكر على وجهي. وقالت: *الأمهات اللعينات مثلك، يضربن عرض الحائط بكل شيء*. جرت آيسي إلى أولكر وأمسكت بقميصها بقوة. فقلت: *ذلك صحيح، كما ظننت، هذه الفتاة لا تحمل ذرة واحدة من الحب لي. قولي لي يا آيسي: من تحبين أكثر؟ أنا أم أباك؟ هاهاها!*.
وضعت أولكر يدها على شفتيها مذهولة وقالت: *انظري لهذا المكان، إنها حالة من الفوضى اللعينة*. دخلت المطبخ، وكانت الأطباق، والأواني، والأكواب مكومة على سطح الطاولة. بدا

مطبخي مثلما لو كان معروضًا في إعلان تلفزيوني عن صابون غسيل الأطباق، لكن لا يوجد ولا حتى جنّي أخضر يمكنه تنظيفه بطرقعة من أصابعه! وقالت أولكر: *تك، تك. لعل الله يعطيك ما تسعين إليه*. عندها جاءت الطفلة الصغرى تتأرجح إلى داخل المطبخ، ممسكة الببرونة التي لا تزال تحمل علامة البيرة عليها. فقالت أولكر: *حسنًا، يبدو أنها تتبع خطى أبيها*.
دفعتني باتجاه الحمام. *ادخلي هنا وامنحي نفسك حمامًا جيدًا. فقط عليك بالنظر لشعرك! إنه يبدو أسوأ من سلك الأواني في حوض المطبخ*. عندما خرجت من الحمام كانت آيسي ممسكة بكيس قمامة، تدور حول الشقة بنظام شبه عسكري وهي تجمع القمامة. قالت أولكر: *لا تفكري حتى في الأمر* عندما رأتني ألقي بجسدي على كرسي بمساند. *اذهبي على الفور معي إلى المطبخ. سأراقبك خلال ساعة حتى تنتهي من هذه الفوضى هنا. لا أريد أن أرى طبقًا واحدًا متسخًا*.
دخلت المطبخ. كانت الأطباق مغطاة بطبقة منتفخة من العفن مسحتها بيدي. كان العفن ناعم الملمس، لكن الطعام تحته كانت تزحف فيه الديدان. صببت مادة مبيضة على الأطباق وشاهدت الديدان المتلوية وهي تموت. كان النمل يسير مهرولًا عبر مربعات البلاط فوق الأرضية. عندما عصرت بعض حبات الليمون عليهم بدأت أرجل النمل ترتعش ثم ماتوا هم أيضًا. تزوج عُمر.. عُمر.. تزوج.. قبل غسل الأطباق، مسحتها ثانية ثم ملأت الحوض بالماء الذي قمت بغليه على الموقد. وبينما كنت أغتسل وأطهر يديّ، سمعت صوت المكنسة آتيًا من حجرة المعيشة. ظللت أفكر: *ماذا لو كانت الصغيرة سقطت من البلكونة؟* بدأت في شطف الأطباق. كانت مياه الصنبور باردة كالثلج. آيسي لا تحبني... تجمدت أطراف أصابعي من البقاء تحت الماء لفترة طويلة. عندما بدأت في إزالة النفايات من على الموقد، دخلت أولكر وقالت: *ذلك أفضل، أعدي لنا بعض الشاي الآن*.

***

جلسنا في البلكونة مع أكواب الشاي. أخرجت أولكر أدوات التطريز: كوفرتة للطفلة بلون أزرق ستيليزان. قالت: *عزيزتي، لا عودة لك عن طريق الأمومة، طالما قمت بولادة أطفالك، فعليك الاعتناء بهم*.
لكنني لا أريد أن يكون لي أطفال. لا يمكنني رعايتهم فهذا كثير عليّ. أعتقد أنني في طريقي لحالة من الاكتئاب الحاد. هذه المرة هي من أطلقت ضحكة ساخرة في وجهي. *اكتئاب؟ ذلك مرض متاح فقط للأغنياء. الناس أمثالنا يصابون بالسرطان، أو بالسل، أو بقرح في المعدة..*.
أولكر، أنت مخطئة. زوجي يجني الكثير من المال، والحمد لله، لذلك يمكنني أن أحظى برفاهية الاكتئاب.
قالت: *الآن، انظري هنا، إذا كانت كل امرأة تُضرب على يدي زوجها ستهمل أطفالها، عندها ما الذي سيحدث؟*.
أنا غاضبة للغاية من أبي يا أولكر، ومن أمي، وزوجي، وعُمر، وهايري... حتى إنني غاضبة من الله. أنا غاضبة من الجميع. لماذا يحدث لي كل هذا؟.
*هل تظنين نفسك الشخص الوحيد في العالم الذي يعاني؟ فقط بعض الناس لا يظهرون ما يعانونه. لديهم جدران صد أكثر سمكًا، لذلك لا تسمعين بشأنهم شيئًا. عندما تراك آيسي، كل ما تتمنى فعله هو أن تهرب بعيدًا عنك وتختفي. وطفلتك الصغيرة لا حول لها ولا قوة من دونك. لا معنى أن تكوني غاضبة على زوجك. فأنت الآن لا تختلفين عنه. وإذا استمرت الأمور على هذا المنوال،

ستصبح بناتك مثلك تمامًا*. كان نقدها لي وتذمرها يضغط على أعصابي بقوة. فهي قد هربت من زوجها، لذلك كل شيء كان سهلًا عليها، وهي الآن تسديني النصائح؟ تركتها ودخلت لأطمئن أن الأطفال بخير حتى تراني كأم طيبة وتخرس كلامها الجارح لي. كانت آيسي جالسة على الأرض في حجرة المعيشة تشرب كوبًا من الكولا، ولديها كوب من الماء أيضًا. كانت تأخذ رشفة من الكولا أولًا ثم رشفة من الماء... تمامًا مثلما يشرب أبوها الراكي. انتابتني نوبة غضب. وكانت ابنتي الصغيرة جالسة هناك تمص حلمة الببرونة الخاصة بها. لم يكن لدي شيء لأقوله فأنا من أعطيتها إياها وعليها علامة البيرة.
عدت للبلكونة. *أوكي، يا أولكر، لقد فهمت وجهة نظرك*. جمعت أشياءها في كيسها البلاستيك وغادرت. أعددت العشاء وساعدت آيسي في أداء واجبها المنزلي. عاد رمزي إلى البيت، وشرب حتى سكر وغاب عن الوعي في السرير. قمت بعمل قرعة طوال الليل وتبدلت النتيجة. لقد أدمنت الأقراص المنومة ولم أعد أستطيع النوم دونها. ظللت أفكر *إذا لم يمت.. ما الذي سيحدث لبناتي... أأصبح عاهرة أم قاتلة..*. جاء الصباح. نمت قليلًا.
قررت أن نبدأ اليوم مثل أي يوم عادي. نتناول إفطارًا هادئًا عاديًّا. ارتديت ثيابي مثل امرأة عادية واصطحبت آيسي لمدرستها، وعدت بها عند نهاية اليوم الدراسي. في طريق عودتنا سأشتري ببرونة أطفال عادية من الصيدلية. وما إن نصل إلى البيت سأعد بعض الحلوى لآيسي، ثم سأقوم بطبخ بعض الدجاج العادي مع البطاطس للعشاء. وإذا حاول رمزي البدء في الجدل معي، سأعمل على التأكد من أن أطفالي لن يصيبهم أي قدر من الطاقة السلبية لشجارنا الذي سيملأ البيت.
استيقظت وقمت بفرد قطعة من العجين لعمل الكعك. سترى مُدَرِّسة آيسي أي أم مثالية أنا! ثم وضعت بعض الماء في الغلاية وذهبت لإغلاق الفرن: أختي... لقد نفد البروبين. أصبت بالهلع. رمزي كان على وشك الاستيقاظ في أي لحظة وسيسأل عن كوب الشاي الصباحي. أعرف كيف سيبدأ الأمر: *لا يوجد شاي. لماذا؟* لقد نفد لدينا البروبين. سيقول: *اللعنة، ألا يمكنك القيام بشيء واحد لعين بالطريقة الصحيحة؟*.
لا، لمرة واحدة كانت البنات لتستيقظ في بيت مليء بالطاقة الإيجابية. جريت للحمام، مفكرة في أنني أستطيع استخدام البروبين من خزان مياه السخان، لكنه كان فارغًا أيضًا. اتصلت بشركة إمداد البروبين. قلت: *إنها حالة طارئة*. من يدري ما الذي كان أولئك الموظفون البلداء يظنونه عندما طلبتهم عند بزوغ الفجر قائلة إنني أحتاج إلى البروبين في الحال. بالتأكيد، لدينا جسد ميت هنا سنقوم بتغسيله، وعلينا أن نعده للدفن.
دخلت غرفة النوم. كان رمزي مستيقظًا بالفعل. جلس وسأل: *هل الشاي جاهز؟* إذا قلت له إن الغاز نفد لدينا... لا، ذلك لن ينفع، كنا على وشك أن نبدأ بداية عادية ليومنا. زحفت على السرير بجواره، وقبل أن يجد الفرصة لينهض ألقيت بذراعيّ حوله. كانت تلك المرة الأولى التي أفعل فيها شيئًا مثل هذا، لم يعرف ما الذي يفعله حيال ذلك. سأل: *ما الذي يجري؟* التففت لأرقد على ظهري، وجذبته ليرقد فوقي، حتى أشتته بعيدًا كفاية، حتى يصل خزان الغاز الجديد. أو على الأقل إذا اكتشف أنني انتظرت حتى الصباح لأطلب خزانًا جديدًا لن يكون قادرًا على الشجار معي. في نهاية المطاف، كان عجوزًا بما يكفي.
كان رمزي يعتليني، في صباح عادي، هذا ما قلته لنفسي: إننا سنحظى بصباح عادي، دون جدل، دون شجار. كنت أعرف أن الوقت كان مبكرًا جدًّا لأطلب المزيد من البروبين. كان المستودع على

بعد دقيقتين من البيت، مجرد شارع واحد. ثم أربعة طوابق حتى شقتنا. تضرعت: *أرجوك يا ربي، ابتسم لي هذا الصباح. لا تدع زوجي يتركني قبل أن يحضر رجل البروبين*. كانت شركة أبراجاز أرخص من آياجاز لكن آياجاز كان ماركة أقدم، وفعليًّا كان الأفضل شراؤه من المورد الصناعي لأنه سيجلب لك خزانًا جديدًا في أي وقت من اليوم. أوشك رمزي على النهوض. *يا ربي، رجاء أن تتولاني برعايتك. الليلة سأقطع بعض البطاطا وأخبزها مع الدجاج في حساء الطماطم، وسأعد الأرز مع الشعيرية، وسأعد طبقًا من السلاطة..*. ما إن انزلق رمزي من فوقي، دق جرس الباب. اندفعت خارج السرير، وأنا أشد سروالي الليلي القطني على ساقي، وارتديت سترة طويلة فوقه. *لا بد أنه رجل البروبين*. ذهبت للباب الأمامي، دون إدراك مني بأنني بينما كنت أدخر للقيام بعملية ربط لأنابيب الرحم، كنت حاملًا في طفلي الثالث.

***

أجبرت نفسي على القيام بدور الأم المثالية، كنت أقتطع طوال الوقت بعضًا من المال هنا وهناك مما يتركه لي رمزي لشراء البقالة. ووضعت المال في حسابي بالبنك، آملة أنني سأمتلك المال الكافي لإجراء العملية. عاد رمزي إلى البيت، وشرب حتى سكر كالمعتاد، وبدأ جدالًا معي دون سبب، وقضى على كل الطاقة الإيجابية من بيتنا، وغاب عن الوعي.

في تلك الليلة قررت أنني أملك خيارًا آخر، غير أن أكون عاهرة أو قاتلة، أو حتى أن أنهي الأمر بأن أقتل نفسي. لم أشمل في خياراتي أن أتطلّق من رمزي، والذي كنت أعرف أنه أمر سيصيبه بالجنون حتمًا. كان الأمر سهلًا: ذات ليلة سنختفي فقط. مثل أولكر. لم يستطع زوجها أن يجدها، مما يعني أنه أمر ممكن. لدي بعض المال في البنك، يكفي لإيجار مكان يأوينا، فلا نقلق من البقاء في الشوارع. سنجد مكانًا بعيدًا جدًّا عن مقر إقامتنا، ربما حتى في مدينة أخرى. سيكون المكان صغيرًا، لكننا لن نحتاج إلى الكثير من الحجرات، وبالنسبة للأثاث، يمكننا أن نتعايش مع سرير واحد لثلاثتنا وطاولة لتدرس عليها آيسي، لأنها ستواصل دراستها طبعًا. وسأحظى بوظيفة وقتها، لذلك لن أتمكن من اصطحابها لمدرستها أو إعادتها إلى البيت. في أسوأ الظروف سأخبرها أن عليها العودة رأسًا إلى البيت في نهاية يومها الدراسي. ستكون الوظيفة جيدة، في مؤسسة الضمان الاجتماعي، وظيفة ثابتة لا يوجد فيها أحد مثل هايري آبي. ستكون جارتنا امرأة عجوزًا غريبة الأطوار لكن طيبة القلب، وسترعى ابنتي الصغيرة لحين عودتي من العمل. من وقت لآخر سأمنحها بعض المال لمساعدتها لي، وسنتمكن من مواصلة الحياة بشكل جدي، ولن يجدنا رمزي أبدًا.

كل أسبوع ستحمل آيسي مظروفًا إلى أبيها: *أبي، المدرسة تجمع أموالًا للهلال الأحمر*... *أبي، إنهم يجمعون التبرعات للهلال الأخضر*... *أبي، نحتاج إلى منح تبرع للصليب الأحمر*. بطبيعة الحال يفترض أن يذهب هذا المال إلى العمل الخيري لكنه سينتهي في أيدينا على كل حال، صحيح؟ أنا أستنزف الرجل. ما الخطأ الكبير في ذلك؟ *أبي، اتحاد الآباء يجمع التبرعات*. سأضع المال في حسابي، جنبًا إلى جنب مع ما أجنيه من الودائع على زجاجات البيرة.

بعت ساعته قائلة إنه لا بد قد فقدها في مكان ما عندما كان مخمورًا، كما بعت سلسلة أرسلان الذهبية. ستبقى ذكراه في قلوبنا للأبد!

طلبت من رمزي بعض المال لشراء بعض الملابس الجديدة للبنتين للإجازة القادمة. قمت بشراء أرخص الملابس، ووضعت بقية المال في البنك. نظرنا لبيان الحساب في البنك، لدينا ما يكفي

لإيجار مكان لنا. قررت تنفيذ الأمر خلال الإجازة، وأن ندخر أي أموال ستجنيها الفتاتان كمعايدة، ثم نتسلل في ليلة ما بمجرد أن يغيب رمزي عن وعيه. سنقضي الليلة الأولى في فندق ما، وفي الصباح التالي سنقضي وقتنا في أي مكان يمكننا إيجاده لتأجيره، بغض النظر عما ستؤول إليه الحال سيكون أمرنا وقتها بيد الله.
ستكون تلك هي المرة الأخيرة التي سترى فيها البنات جديهما في الإجازة. ما إن نهرب، لن نتمكن من زيارتهما ثانية، لأنني أعرف أن رمزي سيحاول العثور علينا. في مساء الليلة الأولى من الإجازة، ارتدت آيسي فستانها الجديد واستعرضته في الجوار. ستحدد تلك الليلة بداية حياتنا الجديدة، لذا بالكاد أمكننا احتواء ما شعرنا به من إثارة.
كان هناك شخص ما عند الباب الأمامي. لم يكن يطرق الباب برفق ولا يدق جرس الباب، لكنه كان يدق على الباب بعنف بالغ. هذا رمزي! أنا أعرف صوت وصول زوجي إلى البيت. بينما كنت أقترب من مقبض الباب، انفتح فجأة. كان رمزي واقفًا هناك ممسكًا بمظروف *ما هذا الفُجر أيتها العاهرة الملعونة!*.
مظروف للتبرع؟.. *بطاقة معايدة!*.
لرؤيتي أنه كان مهتاجًا للغاية... صليت ألا يكون عُمر من أرسل الخطاب. مرة أخرى، زوجي لم يكن يعرف من يكون عُمر، يبقى الأمر على حاله، كان خطابًا من رجل. البطاقة مكتوب عليها بداية: *ليلا، عزيزتي الغالية..*. عرفت أن عُمر تزوج، لكن ربما لم ينس أمري تمامًا؟ كان وجه رمزي ينذر بعاصفة غضب. سألت: *هم هم... من المُرسل؟*.
إنه البنك! 111 كما لو لم يكن كافيًا أن عائلتك سرقتني كالأعمى، الآن أنت تقتطعين المال من خلفي أيضًا! لذا قولي لي، ما الذي تخططين لفعله بذلك المال عليك اللعنة، ها؟ أخبريني بالحقيقة اللعينة!.
هكذا، أرسل لي البنك بتحياته الموسمية. *بنك* فكرت *أتمنى أن تبتلعك الأرض!* ثارت ثورة رمزي وقال كيف لك أن تكوني أسوأ من أسوأ العاهرات وأكثر فسقًا من أكثر الفاسقات. ربما كانت إهانة العملة الوطنية جريمة تجلب العار، لكن الإهانات التي كدسها ورماني بها فاقت كل ما تعرضت له الليرة التركية في تاريخها... وفي النهاية، ولاء البنك لرضا العميل أدى بي راقدة على الأرض بينما أطاح رمزي بخزانة الملابس فوقي. عندما فتحت عينيّ رأيت أولكر. كانت جالسة على الكرسي تطرز. نظرت نظرة خاطفة حولي. نعم، عدت للمستشفى. قلت: *أولكر إنها أنت ثانية. هل أنت هنا لتحصي القوات؟* نظرت لي نظرة خاطفة بتوتر ثم عادت لتطريزها. مختبرة مجرى مضايقتها سألتها: *هذا لون جميل*.
أجابت: *إنه أصفر باروكتين. أنا أطرزه لطفلتك*.
لكن هذا صغير عليها.
إذًا هو كذلك. لكنه ليس لها، إنه للطفل الذي تحملين فيه الآن. أنت حامل مرة أخرى.
لم أستطع منع نفسي من البدء في الضحك. *أولكر، في كل مرة ينتهي بي الحال في المستشفى، أكتشف أنني حامل. هل تعتقدين أن هذا المكان يطرقني بشكل ما؟*.
***
في طريق عودتنا إلى البيت من المستشفى، توقفنا أنا ورمزي بالبنك. سحبت كل ما ادخرته وأعطيته له. من اليوم فصاعدًا، أحكم غلق الباب خلفه عند ذهابه إلى العمل، وكانت آيسي تتولى

دخولها بمفتاحها نهاية كل يوم دراسي، ولم يكن مسموحًا لها بالخروج مرة أخرى.
بيتنا الصغير، ووظيفة الضمان الاجتماعي، والجارة العجوز غريبة الأطوار في الطابق الأعلى... كل هذا تبخر في نفخة دخان. ضاع المال. ولدي طفل آخر قادم. أين يمكنني الذهاب؟ في الماضي كنت أحاول حماية نفسي عندما يضربني رمزي. لكني لم أعد أبالي بالأمر: ما الهدف الآن؟ ما الذي سيحدث؟ لا بد سيحدث.

***

في الليل. كنت أخيط بعض الملابس فوق بطني المنتفخة، بينما الطفلة الصغيرة تمشي حولي بخطوات غير ثابتة، وآيسي جالسة في الركن تؤدي واجبها المنزلي، ورمزي كان يشرب الراكي في مقعده ذي المسند. صورة عائلية مثالية. أمسك رمزي بالطفلة. وبمجرد أن فعل بدأت في الصراخ. تحول إليّ ودمدم: *اللعنة على هذا، حتى طفلتي حولتِ مشاعرها ضدي*. بدأت عيناه تحتقن بالدموع. قال إن أطفال أصدقائه ليسوا كذلك. قال إن هناك شيئًا ما خطأ في عائلتنا، وإنني كنت جاحدة، تمامًا مثل أطفالي. كان لا يزال يحمل الطفلة في حجره وانفجر في البكاء. كلاهما كان يبكي، الأب والابنة. ثم عوى: *أظهري لي بعض الاحترام، جاوبيني عندما أكلمك! أنا لست حمارًا يصلي هنا، أنا زوجك اللعين. جاوبيني!* جالسًا إلى جوار خياطتي أجبته: *ناولني الطفلة وبعدها سنتكلم*. دمدم: *ها هي، خذي طفلتك اللعينة!* ورمى بالطفلة! ارتطمت بالأرض بصوت هادر. كنت متجمدة من الخوف للحظة. وكانت الطفلة تبكي بشدة وتكاد تختنق بدموعها وقد انفتح حاجباها. جرفت آيسي الطفلة بين ذراعيها. صرخ رمزي: *جميعكم ضدي. كلكم مجتمعون!* ثم وجه لي الاتهام. بينما لا تزال آيسي تحمل الطفلة صرخت: *أبي، لا!* التفت نحوها وزمجر: *لمرة واحدة في حياتك اللعينة خذي صفي! أنا أبوك، أيتها الفاسقة الجاحدة. أنا أعمل طوال النهار عليكم اللعنة لأوفر لكم الطعام على الطاولة وأدفع مالًا كثيرًا حتى تتمكني من الذهاب إلى المدرسة. لماذا، أنت تردين عليّ؟ لقد اكتفيت من لكّ هذا الخراء! لن تضعي خطوة واحدة بعد اليوم في المدرسة*.
نعم سأفعل.
قلت لها: *آيسي، اجلسي والزمي الصمت*.
داس رمزي على طاولة الطعام وبدأ في تمزيق كتبها الدراسية.
دعينا نراك تذهبين إلى لمدرسة الآن!.
بدأت آيسي في البكاء: *أبي، لا تفعل!*.
صرخ في نوبة غضب: *فقط حاولي الذهاب إلى المدرسة!* ومزق الكتب إلى قطع أصغر حتى.
في نوبة غضب أخرى، مزق دفتر مذكراتها.. *دعينا نراك تحاولين وتذهبين!*.
في نوبة أخرى، انقلب فوق الطاولة، ملقيًا بالأطباق والأكواب إلى الأرض متكسرة.
بعد وضع الطفلة على كرسي، بدأت آيسي في جمع كتبها الدراسية الممزقة. مسحت الدموع من عينيها وتحركت محنية حول الغرفة، وتوقفت عند نقطة بعينها وحدقت في وجه رمزي: *أصلي لله أن تموت!* صفعها ثم بدأ في الصراخ في وجهي.
لا أستطيع تذكر كل ما قاله. كان الأمر مثل السقوط في النوم بينما تشاهد التلفزيون ويكون كل ما تسمعه مجرد دمدمة أصوات.. *ألم تأتي إليّ زاحفة بعد أن فتحت ساقيك لرئيسك في العمل؟*.
فتحت ساقيك؟ لم تكن آيسي لتفهم ذلك. *ألم يقم أبوك ببيعك مقابل لا شيء؟ إذا لم أكن في حياتك،

لانتهى بك الأمر في ماخور أو كرخانة*. آيسي لم تكن لتفهم ذلك. كيف يمكن لها أن تفهم ما هي الكرخانة؟ *أنت أيتها العاهرة!* من المحتمل أن تفهم تلك العبارة. قلت: *رمزي، اخرس*. لكنه لم يفعل. صفعني ودفعني تجاه الحائط.. *أنت لا شيء سوى فاسقة لعينة تنحني لأي رجل يأتي إليها*. قلت: *رمزي، اخرس*. لكنه لم يفعل.. *هو مثل كل رجل يحدق بي في الشارع، يمكنني أن أفهم فيما يفكرون، ها، نعم، لقد عاشرت زوجة ذلك الرجل*.
آيسي لن... نظرت إليها، رأيت تعبير عينيها. قال رمزي: *لن يكون لدي ذرة احترام لنفسي حتى تموتي*. وبمجرد أن اندفع نحوي، أمسك بإحدى إبر التطريز خاصتي، وأمسكت أنا بسكين الخبز الذي سقط من فوق الطاولة.

***

كانت الصغيرة تبكي. وكان رمزي راقدًا في بركة من الدماء. قمت بجس نبضه. كان ميتًا. وقفت آيسي هناك محدقة فيه. سألتني: *هل هو ميت؟* أجبتها: *نعم*. لم تقل أي شيء ولم تذرف دمعة واحدة. تبددت الطاقة الإيجابية من بيتنا للأبد.

***

هل تصدق الأمر؟ أنا لم أستطع تصديقه. قالت المحكمة إنني لست مذنبة، وإنها كانت حالة دفاع عن النفس *تحت أقصى درجات الاستفزاز والتحدي*.
عدنا إلى البيت. هكذا، كنت هناك مع بناتي، وقد نجوت من رمزي. لأول مرة في حياتي كنت حرة. لأول مرة في حياتي كنت سعيدة بأنني حامل. تساءلت ما الذي سيفعله أبناؤه عندما يعرفون بما جرى، وهل سيأتون ليفرزوا حسابات أبيهم... حسنًا، يمكنني أن أنتقل، ولن يجدوني في هذه المدينة أبدًا. بعد كل تلك السنوات، هم لن يكلفوا نفسهم عناء الاتصال برمزي، لذلك أشك في أنهم سيحضرون، وحتى لو فعلوا فإنهم لن يكونوا قادرين على التعرف عليّ. أنا لم أقابلهم من قبل أبدًا.
قررت أن أبيع كل شيء في شقتنا وأنتقل لمكان ما بعيد جدًّا عن هنا. يمكن لأولكر أن تنتقل معنا وترعى البنات بينما أعمل لجلب الطعام ودفع الإيجار. ستكون الحياة سريرًا من الورود.
في تلك الليلة وضعت رأسي على الوسادة. بعد العديد من السنوات، لم أفكر فيما سيحدث إذا لم يمت رمزي، وأين سينتهي بي المطاف هل لأصبح عاهرة أم قاتلة، أو إذا ما انتهى بي الأمر ميتة. كنت قاتلة، وأطلقت المحكمة سراحي. وخز الضمير؟ لا يوجد. قمت بحماية أطفالي وحماية نفسي. حتى المحكمة قضت بأنها حالة دفاع عن النفس، لذلك لم يكن هناك سبب لعذاب ضميري. غرقت في نوم عميق هادئ.
استيقظت وأعددت الإفطار. صباح هادئ. وعندما أرسلت آيسي للمدرسة قلت: *لا تقولي كلمة واحدة عن الذي جرى لأي حد، أوكي؟* أخرجت دجاجة من الثلاجة لإذابة الثلج، لأنني كنت أخطط لطبخها مع بعض البطاطس للعشاء. دق جرس الباب. عندما فتحت الباب، رأيت نيسيب واقفة هناك، محدقة فيّ بعينيها الزرقاوين العميقتين. ألقت بذراعها حولي واحتضنتني. قالت: *لا تقلقي على أي شيء، أنا أعرف أنك فعلتها لحماية نفسك*. لم يكن في كلامها أي منطق. كيف اكتشفت الأمر بهذه السرعة؟ وعندما كنا على وشك الجلوس في غرفة المعيشة، دق جرس الباب مرة أخرى. هذه المرة كانت أولكر. جاءت لتتمنى لي الأمنيات الطيبة بعد كل ما مررت به، قائلة إن الأمر كان من الممكن أن ينتهي نهاية أسوا من تلك بكثير.
سألت: *أين سمع كلاكما بهذا؟*.

قالت أولكر: *أنت في كل نشرات الأخبار! وتقريبًا في كل قنوات التلفزيون*.
ما الذي تتحدثين عنه؟.
فردت نيسيب رزمة من الصحف من حقيبتها. *أنت في الصحف أيضًا. حتى إنهم وضعوا صورة لك*. أخذت واحدة من تلك الصحف ونظرت في أخبار الصفحة الخلفية. كنت هناك، تمامًا على رأس الصفحة. سرت رعشة في عمودي الفقري.
في جريدة أخرى رأيت مقالًا بعنوان *امراة تقتل زوجها، وتطلق المحكمة سراحها*. كنت أنا هذه المراة. *ليلا تاشي، العمر 27 سنة، أم لطفلتين، تزوجت لسنوات من رمزي تاشي، وهو تاجر أقمشة، لكن زواجها شابته خلافات لم يكن ممكنًا إصلاحها. عندما عاد رمزي تاشي في الليلة السابقة إلى البيت مخمورًا، حدثت مشادة كلامية وشجار، كانت نتيجته..*.
أضاف المقال صورة لي لكن وجهي كان مشوشًا فيها.
في جريدة أخرى: *ليلا تي. أم لطفلتين والتي تسكن في سادي سيسمي سوكاك في حي الإيمان في إسطنبول. عاد زوجها إلى البيت مسممًا بالكحول وبدأ في ضربها هي وأطفالها، حين طعنته حتى الموت. رمزي تي، الذي أدار متجره في مجال تجارة الأقمشة في حي زيتنبورنو، مسجل أنه كان مُدمنًا على الكحول والذي..*.
ذلك المقال لم يشمل صورة لي.
كنت تحت اسم إل. تي. في قصص الأخبار المختلفة. *بالوضع في الاعتبار حقيقة أن إل. تي. أم لطفلتين وحامل أيضًا حكمت المحكمة بناء على ما نمى لعلمها عن الظروف المجحفة التي وقعت فيها الحادثة، لذا فلا بد أن المجني عليه *المتهم*..*.
بوضع قصص الأخبار في الصفحات الأخيرة جنبًا إلى جنبٍ، رأيت أنهم علموا بالأمر كله: اسمي، مع وصف لي، مع صورتي. وقلت: *اللعنة*. الآن نحن حقًا صرنا ملعونين*. دق جرس الباب مرة أخرى. كانت آيسي. *أمي، كل ما حدث منشور في الجرائد. ظل الأطفال في المدرسة يقولون: هي ابنة قاتلة، هي ابنة قاتلة*.
الآن يمكن قلب الصفحة.